تحديد المعنى الأم وأثره في تذوق ميمية المتنبي على قدر أهل العزم

الدكتور

عبدالباقي علي محمد يوسف

أستاذ البلاغة والنقد المساعد بكلية اللغة العربية بأسيوط

العدد الثاني والعشرون

للعام ١٤٣٩هـ / ٢٠١٨م

الجزء الأول

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/ ٢٠١٨م

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين .... وبعد،

فإن وُكد الباحث من وراء هذه الدراسة أن يضع، ولو لبنة واحدة في تشييد منهج طريف لتحليل النصوص وتذوقها، مستمدا أصوله وثوابته من منهج تليد صالح للدراسات التحليلية في وقتنا الحاضر، وقد انطلقت الدراسة في رحلتها من ثوابت أصيلة أرسى قواعدها روادنا من الأسلاف؛ فجزى الله خيرا أعلام الأمة، وشداة المعرفة من العباقرة الأفذاذ والأحوذيين البرعاء الذين نهجوا الطريق، ونصبوا الأعلام؛ فأدوا ما عليهم من واجب العصر، وحاجات الزمان، وحددوا الهدف؛ فصوبوا نحوه سهام النظر بدقة عالية، وعقل رشيد؛ وانطلقوا في همة لا تعرف الكلال، يغمسون أقلامهم في أنوار المعرفة؛ فما بارت لهم حجة، ولا طاش لهم رمي، وكتب الله لمؤلفاتهم البقاء؛ فكانت غنية عامرة، وظلت عصية على الأيام.

وكان المنتظر أن يتلقف الراية جيل بعد جيل؛ لتستمر مسيرة العطاء لأمة رائدة، لولا مصيبة الأمة في بعض أولادها، ومنسوبيها من أصحاب العقول المُسْتَرَكَّة – رماهم الله بخرساء! – المبهورين بثقافة اليونان، والرومان؛ ما زج بهم زجا في أتون الترويج لأحفاد أرسطو، وخالفي أفلاطون، فسقطوا في هذه الخسيسة، وانهدم في نفوسهم جدار الولاء لأمتهم، والانتماء لأيامها الحُفَّل، وروادها النابهين؛ فراحوا يؤسسون دراستهم لأدبنا العربي على الانعتاق من تراث الأجداد، ويرسمون صورة قاتمة للعقل العربي، عاكفين على أفكار لهم تفوح منها أرواح مفزعة، سابحين فوق طوفان من الألفاظ البراقة في صحراء من

الفِكَر. وتصدر المشهد جوقة من الخونة لأمتهم ولدينهم؛ ليس لهم هم إلا الضرب الأعمى في معاقل العلم، وتراث الأمة؛ فأفرغوا وسعهم ما بين همهمة وزمزمة وأخلاط لا تبين، وانقطعوا لإطفاء مشاعل الهداية الساطعة؛ وطمس معالم الإشراق البين الذي في سبيله بذل الرواد من السلف مهجهم، بعدما سكبوا على صفحاته حبات عيونهم، وقد ذهبوا – وآسفاه – في تحقيق غاياتهم إلى شوط بعيد؛ وتحكموا في مجالس الرفع والخفض، وترأسوا صدور المحافل، وحاولوا خداع الناشئة عن نواياهم الخبيثة، صارفين إياهم بخوادع الآمال، وكواذب العلل؛ فنشأت في الأمة أجيال تستوحش الفصحى، وفيهم من يناصبها العداء، بعدما كسفت شموسها في سماواتهم، وهُدِّمت في نفوسهم بوارقها، وقد استقووا على ذلك بآلة إعلامية مدعومة تتبنى سياسة التلميع والتبشيع، فتحبب إلى ناشئة الأجيال كل ما هو من الشائنين بسبيل، وتزرع الفضاء ليلا ونهارا بمفردات خادعة، وغمغمات مبهمة، وكلمات لها في آذانهم رنة، وفي عيونهم بريق، من مثل: الحداثة والتجديد والمعاصرة والتطوير، وذلك في الوقت الذي تبغض العربية إلى أبنائها، وتتنقص الأسلاف في عيون الأخلاف، وتزري بالرواد على مسامع الأحفاد، وتلح لتجتث الشعور بالاعتزاز بتراثنا المبارك، ولكن الله غالب على أمره، سبحانه أرسى سفينة نوح – عليه السلام – واستوت على الجودي، وقيل بعدا للقوم الظالمين، وكذلك فِعْلُهُ بفصحانا الخالدة ما دامت السماوات والأرض، فقد ندب لها رجالا يستسهلون فيها الصعاب، ويستعذبون مُرَّ العذاب، وكان من بين هؤلاء الرواد الأماثل الدكتور محمد أبو موسى الشيخ الصابر المحتسب الذي انقطع للعلم[١]، متعبدا في محراب الفصحي، طوّافا حول كعبتها، يستكنه الأسرار، ويطارد شوارد الفكر، ولطالما ردد في نبر واثق، وصوت جهير أننا " لو احتلنا على درس

(١) كما يقول عن نفسه:" فعزم أمري على أخذ نفسي بالاجتهاد والصبر والصدق والانقطاع والتجرد ثم مضيت برغبة شديدة أن أقدم شيئا للأجيال القادمة" آل حميم الجاثية صـ ٣ ط/١ وهبة بالقاهرة ١٤٣٢هـ ٢٠١١م.

أدب هذا اللسان بكل ما قاله أصحاب الألسنة الأخرى فلن تنفتح لنا أسرار شعره إلا بالعلم المستخرج من طرائق هذا اللسان نفسه"[١]، ولكم كان معنيا – باركه الله – من طليعة كتاباته بتحليل النصوص وتفصيصها، وفق منهج قوامه الوقوف مليا أمام النص مناط التحليل، ومن ثم الغوص في أعماقه والتنقير في خوافيه، والتشبث بأغواره ومراقيه؛ وصولا إلى أبعاده ومراميه، ومن يطالع كتابات الشيخ أبي موسى – تولى الله مكافأته – يجد فيها حر أنفاس الإمام عبدالقاهر الباعثة على تحفيز العقل، واستنفار كافة قواه لاستبطان النص، والتسلل من ذلك إلى نفْس صاحب البيان ونفَسه، وكثيرا ما تقع العين في كتابات أبي موسى على مفردات من مثل: المعنى المؤم – أصل المعنى – حاق المعنى – الغرض المؤم – المقصد – المعنى الأم ..... إلى غير ذلك من الدوالّ التي ترتاد مثل هاته الأودية. وإنه لكلف بإمتاع عقله بتحليل النصوص وتشقيقها، ومزاولة الانغلال في أنساق البيان، والتدسس داخل أعطاف المبين، وما أكثر ما يدق أجراس الخطر، مؤكدا على ضرورة مدارسة البلاغة الحية، واستنبات الفكرة من مظانها الأولى، ومرابعها العتاق، هناك تحت ألسنة الشعراء في رياض الدواوين، ولقد نبه الشيخ مرارا – وهو العالم علم القريب المفاطن – على الأهمية القصوى في تحليل النصوص لتتبع حركات المعني في أعطاف البيان، وضرورة تحديد المعنى الأم الذي هو المثابة المحورية التي ترتد إليها تفاصيل كثيرة في النص مناط التحليل، وكيف أن ذلك المعنى الأم يمثل قطب الدلالة المركزية في النص، ثم تنبثق منه معانٍ فرعية، وتنشأ حتما علاقة تماسك بين هذه المعاني الفرعية من جهة، وبينها وبين المعنى الأم من زاوية ثانية، ولابد لمن يتصدى لأي نص – وفق المفهوم من منهج الشيخ في التحليل – أن تكون إحدى عينيه معقودة على تلك العلاقات بين المعاني الفرعية وبينها وبين المعنى الأم، والعين الأخرى لا تغفل

(١) الإعجاز البلاغي د/محمد أو موسى صـ ٩٠ ط/٢ وهبة بالقاهرة ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م.

بحال عن الروابط اللفظية والمعنوية بين هاتيك المعاني، وهذه الروابط تتقاطع حتما مع العلاقات المرصودة بين تلك المعاني، وهذه العلاقات بين المعاني الفرعية والمعنى الأم تتحدر متساوقة مع الروابط المختلفة الموجودة بين المعاني؛ لتسلم القارئ إلى الغرض الرئيس الذي هو نصبة المبين وطلبته.

وإذا وضع محلل النصوص اليد بلطف وأناة على المعنى الأم، وانطلق بعد ذلك نحو ما ينسدل عن ذلك المعنى من معان فرعية، وراح في تتبع واع رشيد يتحسس المزج الدلالي بين المعاني، ويترصد الاستمرارية الدلالية بينها عن طريق مسائلة الروابط، ومباطنة العلاقات = إنه إن فعل ذلك كما ينبغي فإنه واصل لا محالة للهدف المتغيا، والمقصد المروم الذي من أجله أنشأ كل صاحب بيان ما أنشأه من بيان. وبذلك تتحقق مركزية الدلالة في النص الأدبي، وإنها لعمري عين النهى، وبيت القصيد.

وقد أغراني بتطبيق منهج الشيخ في تحليل النصوص أستاذي، وشيخي الأستاذ الدكتور/ محمود مخلوف[١]؛ فشرعت أبحث عن قصيدة أطبق عليها هذه النظرية في تعاطي النصوص وتشقيقها، حتى وقعت العين على قصيدة من عيون الشعر العربي غرد فيها شاعر العربية الأكبر أبو الطيب المتنبي

بِحُرّ المعاني وبكر المباني

بصـــوت جهير ولحن نضير[٢]

فأوَّبَتَ معه الدنيا على طرب

وغردت خلفه الأطيار في عجب[٣]

تبل غلتها من بحـــره اللجب، ودقّ منزعها فجاء مطلعها:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم ∴ وتأتي على قدر الكرام المكارم

---

(١) أستاذ ورئيس قسم البلاغة والنقد بكلية اللغة العربية – جامعة الأزهر فرع أسيوط.

(٢) هذا بيت من بحر المتقارب، وهو للباحث.

(٣) هذا بيت من البسيط، وهو للباحث.

فرحت أطبق عليها منهج الشيخ في التحليل، وعمود منهجه في التحليل أن تقسم النصوص إلى فصول أو مقاطع على وفق تماسك المعنى ووحدته، وهذا عين ما فعلته الدراسة مع قصيدة أبي الطيب مناط البحث؛ فجاء البحث من فصل واحد تنتظم فيه مباحث ثمانية تسبقها مقدمة، وتتلوها خاتمة وفهارس متنوعة؛ فكانت الخطة على النحو الآتي:

المقدمة، وفيها تمهيد لأهمية الموضوع، والدافع وراء اختياره.

المبحث الأول: نص القصيدة والمعنى الأم والمعاني الفرعية.

المبحث الثاني: المعنى الفرعي الأول، العزائم على قدر الرجال.

المبحث الثالث: المعنى الفرعي الثاني، عزيمة لا تعرف الكلال.

المبحث الرابع: المعنى الفرعي الثالث، أحداث المعركة.

المبحث الخامس: المعنى الفرعي الرابع، لا جدوى من عتاد الروم.

المبحث السادس: المعنى الفرعي الخامس، قوة الممدوح الباهرة.

المبحث السابع: المعنى الفرعي السادس، نتيجة المعركة.

المبحث الثامن: المعنى الفرعي السابع، الممدوح معقد آمال الناظرين.

الخاتمة، وفيها أهم النتائج التي رصدتها الدراسة.

فهرس المصادر والمراجع، وفهرس الموضوعات.

طريقة السير في البحث.

أما عن طريقة السير في الموضوع فهي كما سبق وفق منهج الشيخ أبي موسى – باركه الله – حيث بدأت الدراسة بمراجعة القصيدة مرات، والوقوف مليا عند جملها وسائر مفرداتها، وذلك من أجل تحديد المعنى الأم للقصيدة، ثم راحت

الدراسة تقسم القصيدة إلى معاقد بحسب المقاصد الجلي، والأفكار العظمى، متناولة كل فكرة من تلك الأفكار على حدة، مفردة لها مبحثا خاصا بها يلم شملها، ويجمع أفاريقها، وذلك بالوقوف المطول عند فقارها لتحديد المعنى الأم لهذا المقطع، وتعيين الصورة اللفظية التي هي الجملة الأم له، وصلتها بالمعنى الأم للقصيدة، ثم التركيز على الرحم بين المعنى الأم للقصيدة والمعنى الأم لكل مقطع، وكيف تتناغي هاتيك المعاني الجزئية مع معنى القصيدة الأم ومقصودها الرئيس، ولم تغفل الدراسة النظر في الروابط القائمة بين جمل المقاطع وتراكيب الفقار. ومن خلال ذلك كله راحت الدراسة تلتقط ملامح عامة لكل مقطع من مقاطع القصيدة، وتبحث عن الخصائص المشتركة بين المقاطع لتستعين بهذا الرصد الجزئي في تسجيل النتائج العامة التي تضمنتها خاتمة البحث.

على أنه يجب التنبيه أن هذا المنهج في تحليل النصوص عند الشيخ لم يستو على سوقه إلا في مرحلة وسطى من تاريخ مؤلفات الشيخ – رضي الله عنه – وقد أصل لذلك الدكتور محمود مخلوف في بحث مستقل ماتع[١]، وما هذه الدراسة سوى محاولة صادقة لتطبيق ذلك المنهج الميمون – إن شاء الله –، وما يدريني؟ إن هذا العلم خزائن، ولعل الله جلت قدرته يجعل في هذه الدراسة الراجية عفو الله المتطلعة لتوفيقه بعض مفاتيح تلك الخزائن، وهو – سبحانه – من وراء القصد، نعم المولى ونعم النصير، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) البحث تحت النشر، وعنوانه: تحديد أمهات المعاني في الجمل والنصوص وأثره على تذوقها وتحليلها عند الشيخ أبي موسى.

المبحث الأول

نص القصيدة

المعنى الأم والمعاني الفرعية

أولا: نص القصيدة .

١- عَــلَى قَــدْرِ أَهــلِ العَــزمِ تَأتِي العَزائِمُ
وتَــأتِي عَــلَى قَــدْرِ الكِــرامِ المَكــارِمُ[١]

٢ - وتَعظُــمُ فــي عَيــنِ الصّغِــيرِ صِغارُها
وتَصغُــر فــي عَيــنِ العَظِيــمِ العَظــائِمُ

٣- يُكــلّفُ سَــيفُ الدَولَــةِ الجَــيشَ هَمّــهُ
وقــد عَجَــزَتْ عنــهُ الجُيوشُ الخَضارِمُ[٢]

٤ - ويَطلــب عِنــدَ النــاسِ مــا عِنــدَ نَفسهِ
وذلِــكَ مــا لا تَدَّعِيــهِ الضَــراغِمُ

٥ - يُفــدّي أَتــمُّ الطَّــيرِ عُمــرًا سِــلاحَه
نُسورُ الفَــلا أَحداثُهــا والقَشــاعِمُ[٣]

---

(١) ديوان أبي الطيب بشرح العكبري ٣٧٨/٣ بتحقيق مصطفى السقا وآخريْن ط دار المعرفة بيروت. والقصيدة من بحر الطويل، وهو من البحور الكوامل التي تناسب طول النفس الذي تحلى به أبو الطيب في مدح سيف الدولة، وتمكنه من سكب المعاني كيف شاء في تصوير مناقب الممدوح، ووصف معاركه، وبطولاته.

(٢) الخضارم جمع خِضْرِم، وهو الكثير العظيم من كل شيء. مجمل اللغة لابن فارس ٣١٣/١ بتحقيق زهير سلطان. ط/الثانية. مؤسسة الرسالة بيروت ١٤٠٦هـ.

(٣) القشاعم جمع مفرده قَشْعَم، والقشعم من النسور المسن الهرم. تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري ٢٠١٢/٥ بتحقيق أحمد عبدالغفور. ط/ الرابعة. دار العلم للملايين بيروت ١٤٠٧هـ .

٦ – وَمـــا ضَرَّهـــا خَـــلْقٌ بِغَـــيرِ مَخـــالِب
وقد خُـــلِقَتْ أَســـيافُهُ والقَـــوائِمُ[١]

٧ – هَـــلِ الحَـــدَثُ الحَـــمراءُ تَعـــرِفُ لَونَها
وتَعلَـــمُ أَي الســـــاقِيَينِ الغَمـــائِمُ[٢]

٨ – سَـــقَتها الغَمـــامُ الغُـــرُّ قَبـــلَ نُزولـــهِ
فَلما دَنـــا منهـــا ســـقتها الجَمـــاجِمُ

٩ – بَناهـــا فـــأَعلَى والقَنـــا يَقـــرَعُ القَنـــا
ومَـــوجُ المَنايـــا حَولَهـــا مُتَلاطِـــمُ

١٠ – وكَـــانَ بِهـــا مِثـــلُ الجُـــنونِ فـــأَصبَحَت
ومِن جُـــثَثِ القَتـــلَى عَلَيهـــا تَمـــائِمُ

١١ – طَرِيـــدةُ دَهـــرٍ ســـاقَها فرددْتهـــا
عـــلى الـــدِينِ بـــالخَطّيِّ والدَهـــرُ راغِمُ

١٢ – تُفِيـــتُ الليـــالِي كُـــلَّ شـــيءٍ أَخذتَـــهُ
وهُـــنَّ لِمـــا يَـــأخُذنَ مِنـــكَ غَـــوارِمُ

١٣ – إذا كـــانَ مـــا تَنوِيـــهِ فِعـــلاً مُضارِعًـــا
مَضَـــى قَبـــلَ أن تُلقَـــى عَلَيـــهِ الجَوازِمُ

---

(١) القوائم جمع قائم، وقائم السيف مَقْبِضُه. معجم ديوان الأدب للفارابي بتحقيق أحمد مختـــار عمر ٣/٣٦٤ مؤسسة دار الشعب بالقاهرة ٢٠٠٣م.

(٢) "الحَدَثُ: بالتحريك، وآخره ثاء مثلثة: قلعة حصينة بين ملطية وسميســـاط ومـــرعش مـــن الثغور،... وقلعتها على جبل يقال له الأحيدب، ... كان حصن الحدث مما فتح في أيام عمر، ... وكان معاوية يتعاهده بعد ذلك،... ثم لم ينته إليّ شيء من خبره إلّا ما كان فـــي أيـــام سيف الدولة بن حمدان، وكان له به وقعات، وخربته الروم في أيامه، وخرج سيف الدولـــة في سنة ٣٤٣ لعمارته، فعمره وأتاه الدمستق في جموعه فردهم سيف الدولة مهـــزومين". معجم البلدان لياقوت الحموي ٢/٢٢٧ط/ الثانية. دار صادر بيروت ١٩٩٥م.

١٤ – وكَـيفَ تُرَجِّـي الـرُومُ والروسُ هَدمَها
وَذا الطَعنُ آسَـاسٌ لهـا ودَعـائِمُ[١]

١٥ – وقـد حاكَمُوهـا والمَنايـا حَـواكِمٌ
فمـا مـاتَ مَظلُـومٌ ولا عـاشَ ظـالِمُ

١٦ – أَتَـوكَ يَجُـرُّونَ الحَـدِيدَ كأنّمـا
سَـرَوْا بِجِيـادٍ مـا لَهُـنَّ قَـوائِمُ

١٧ – إِذا بَرَقُـوا لـم تُعـرَفِ البِيـضُ مِنهُـمُ
ثِيـابُهُمُ مِـن مِثلِهـا والعَمـائِمُ

١٨ – خَـمِيسٌ بِشَـرقِ الأرضِ والغَربِ زَحفُهُ
وفـي أذُنِ الجَـوزاءِ منـهُ زمـازِمُ[٢]

١٩ – تَجَـمّع فيـهِ كُـل لِسـنٍ وأُمَّـةٍ
فمـا يُفهِـمُ الحُـدَّاثَ إِلا التَراجِـمُ[٣]

٢٠ – فلِلّـهِ وَقـتٌ ذوَّبَ الغِشَّ نـارُهُ
فلـم يَبـقَ إِلا صـارِمٌ أو ضُبـارِمُ[٤]

---

(١) الروس فرقة من المقاتلين تابعة للروم. ينظر: المسالك والممالك للاصطخري صـ ٤، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣ طبعة دار صادر بيروت ٢٠٠٤م. الآساس جمع أسس كسبب وأسباب. ينظر: العين للخليل ٣٣٤/٧ بتحقيق د مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي طبعة مكتبة الهلال من دون تاريخ.

(٢) الزمازم جمع زمزمة، وأصل الزمزمة الكلام الذي لا يفهم. ينظر: جمهرة اللغة لابن دريد ٢٠١/١ بتحقيق رمزي بعلبكي. ط/الأولى. دار العلم للملاين بيروت ١٩٨٧م.

(٣) اللِّسْنُ: اللغة. يقال لكل قوم لِسْنٌ، أي لغة يتحدثون بها. تهذيب اللغة للأزهري ٢٩٦/١٢ بتحقيق محمد عوض. ط/الأولى. دار إحياء التراث العربي بيروت ٢٠٠١م.

(٤) الضُّبَارِمُ: الأسد. مقاييس اللغة لابن فارس ٤٠١/٣ بتحقيق عبدالسلام هاروون طبعة دار الفكر ١٩٧٩م.

٢١ – تَقَطَّعُ ما لا يَقطَعُ الدِرعَ والقَنا
وفَرَّ مِنَ الفُرسانِ مَن لا يُصادِمُ

٢٢ – وَقَفتَ وَما في المَوتِ شَكٌّ لِواقِفٍ
كَأَنكَ في جَفنِ الرَّدَى وَهْوَ نائِمُ

٢٣ – تَمُرُّ بِكَ الأَبطالُ كَلْمَى هَزيمَةً
ووَجهُكَ وَضَّاحٌ وثَغْرُكَ باسِمُ

٢٤ – تجاوَزتَ مِقدارَ الشَجاعةِ والنُهَى
إلى قَولِ قَومٍ أَنتَ بالغَيبِ عالِمُ[1]

٢٥ – ضَمَمتَ جَناحَيهِم عَلى القَلبِ ضَمَّةً
تَمُوتُ الخَوافِي تحتَها والقَوادِمُ

٢٦ – بِضَربٍ أَتَى الهاماتِ والنَصرُ غائبٌ
وَصارَ إِلى اللبَّاتِ والنَصرُ قادِمُ

٢٧ – حَقَرتَ الرُدَينيَّاتِ حَتَّى طَرَحتَها
وحَتى كَأنَّ السيف لِلرُمحِ شاتِمُ

٢٨ – ومَن طَلَبَ الفَتحَ الجَلِيلَ فإنَّما
مَفاتيحُهُ البِيضُ الخِفافُ الصَوارِمُ

٢٩ – نَثَرتَهُمُ فَوقَ الأُحَيدِبِ كُلِّهِ
كَما نُثِرت فَوقَ العَرُوسِ الدَراهِمُ

٣٠ – تَدُوسُ بِكَ الخَيلُ الوُكورَ على الذُّرَى
وقَد كَثُرَت حَولَ الوُكورِ المَطاعِمُ

---

(١) هذه إحدى مبالغات أبي الطيب، وقد قالها، وناطها في عقيرة غيره؛ إذ جعلها على لسان قوم آخرين، فاللوم – إن وجد – فمتجه إلى أولئك القائلين عن ممدوحه إنه عالم بالغيب. أما الشاعر فقد حكى قولهم بعدما راح يتحسس لهم المعاذير؛ فعزا قولهم لفرط شجاعة الممدوح، وعظيم استبساله.

٣١ – تَظُنَّ فِراخُ الفُتخِ أَنكَ زرتَها
بِأُمَّاتِها وَهْيَ العِتاقُ الصَّلادِمُ[1]

٣٢ – إِذا زَلِقَت مَشَّيْتَها بِبُطُونِها
كَما تَتَمشَّى في الصَعيد الأَراقِمُ

٣٣ – أَفِي كُلِّ يومٍ ذا الدُّمستُق مُقدِمٌ
فَقَاهُ على الإِقدامِ لِلوَجهِ لائِمُ

٣٤ – أَيُنكِر ريحَ اللّيث حتّى يَذُوقَه
وقد عَرفَتْ رِيحَ اليُوث البهائِمُ

٣٥ – وقد فَجَعَتهُ بِابنِهِ وابنِ صهرِهِ
وبالصِهرِ حَملاتُ الأَميرِ الغَواشِمُ

٣٦ – مَضَى يَشكُرُ الأَصحابَ في فَوتِهِ الظُبى
لِمَا شغلتها هامُهُم والمَعاصِمُ

٣٧ – ويفهَمُ صَوتَ المَشرفيَّةِ فيهِمِ
على أَنَّ أَصواتَ السُيُوفِ أَعاجِمُ

٣٨ – يُسَرُّ بما أَعطاكَ لا عَن جَهالَةٍ
ولكِنَّ مَغنوماً نجا مِنكَ غانِمُ

---

(١) الفُتْخ جمع فتخاء، وهي العُقاب، سميت فتخاء للين جناحيها. ينظر: المخصص لابن سيدة ٣٣٥/٢ بتحقيق خليل جفال. ط/الأولى. دار إحياء التراث العرب بيروت ١٩٩٦م. والفَتَخُ استرخاء المفاصل ولينها. تاج العروس للزبيدي ٣٠٨/٧ بتحقيق مجموعة من المحققين. طبعة دار الهداية من دون تاريخ. والأُمَّاتُ جمع أُم فيما لا = = يعقل. مختار الصحاح للرازي بتحقيق يوسف الشيخ صـ ٢٢. ط/ الخامسة. المكتبة العصرية بيروت١٩٩٩م. والصَّلادِمُ جمع مفرده الصِّلْدِمُ، وهو الفرس القوي الشديد الحافر. لسان العرب لابن منظور ٣٤٢/١٢. ط/ الثالثة. دار صادر بيروت ١٤١٤ه.

٣٩ – ولَستَ مليكًا هازمًا لنَظيره
ولكِنكَ التَّوحيدُ للشِركْ هازمُ

٤٠ – تشَرَّفُ عَدنانٌ بِهِ لا رَبيعةٌ
وتَفتخِرُ الدُّنيا بِهِ لا العَواصِمُ

٤١ – لَكَ الحَمدُ في الدُرِّ الَّذي لِيَ لَفظُهُ
فَإنَّكَ مُعطيه وإنِّيَ ناظِمُ

٤٢ – وإنِّي لَتَعدو بي عَطاياكَ في الوَغى
فَلا أَنا مَذمُومٌ ولا أَنتَ نادِمُ[١]

٤٣ – على كُلِّ طَيَّارٍ إليها برِجلِهِ
إذا وَقَعَتْ في مِسمَعَيهِ الغَماغِمُ[٢]

٤٤ – أَلا أَيُّها السَّيفُ الَّذي لَيسَ مُغمَداً
وَلا فيهِ مُرتابٌ ولا مِنهُ عاصِمُ

٤٥ – هَنيئا لِضَربِ الهامِ والمَجدِ والعُلَى
وَراجِيكَ والإِسلامِ أَنكَ سالِمُ

٤٦ – ولِم لا يَقِي الرَّحمنُ حَدّيكِ ما وَقَى
وتَفلِيقُهُ هامَ العِدَى بِكَ دائِمُ

---

(١) الوغى: الْأَصْوَات فِي الْحَرْب، ثمَّ كثر ذَلِك حَتَّى سموا الْحَرْب: وغى. المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده ٧٠/٦ بتحقيق عبدالحميد هنداوي. ط/الأولى. دار الكتب العلمية ٢٠٠٠م.

(٢) الغماغم جمع غمغمة، وهي الوغى، أو أصوات الأبطال في حومة الحرب. ينظر البارع في اللغة لأبي على القالي بتحقيق هشام الطعان صـ ٤٤٨. ط/الأولى مكتبة النهضة ببغداد ١٩٧٥م.

ثانيا: المعنى الأم والمعاني الفرعية.

بالرجوع إلي سياق القصيدة مناط المباحثة تبين أن عزيمة سيف الدولة النافذة، وطموحه الوثاب، وهمته التي لا تعرف الكلال، وتوابع ذلك من ذكر المعركة، وما استدعاه من ذكر تردد جند الروم وقادتهم في مواجهة سيف الدولة، وما ترتب عليه من نصر كاسح وعز تليد= تبين أن ذلك هو موضوع القصيدة، ومعناها الأم الذي دارت حوله معانيها الفرعية.

وتحديد المعنى الأم في بيانٍ ما يسهُل معه تعيين الجملة الأم؛ إذ الجملة الأم في البيان إنما هي الصورة اللفظية للمعنى الأم على ما قرره شيخنا أبو موسى صاحب المنهج المقتفَى في تحليل هاته القصيدة [١].

ثم إن معرفة المعنى الأم في القصيدة يشرع الأبواب أمام المتصدي لاستبطان البيان ليضع اليد على تلك المعاني الجزئية التي تفرعت عن هذا المعنى الأم، ليقف على هندسة بنائها، وطرائق ترتيبها، وكيف تفرعت عن هذا المعنى الأم، ثم تفرع عنها معانٍ أخر؛ فصار للكلام أمّ، وأبناء، وحفدة، كما يقول شيخنا[٢] – باركه الله – وكيف ترتبت هذه الأفكار الفرعية على هذا المعنى الأم، وكيف ترتب بعض هاتيك المعاني على بعض، وجاء أول منها ممهدًا لثانٍ، ورابعٌ مترتبًا على ثالث، وهذا " هو جوهر تحليل كل بيان صقله صاحبه شعرا كان أو نثرا ... لأنه يحدد لنا صورة البيان الذي ندرسه بجزئياته وكلياته وأصوله وفروعه في نفس قائله حتى يصير القارئ ليس ملتبسا بالنص اللغوي فحسب،

---

(١) راجع شرح أحاديث من صحيح البخاري صـ ٦٥٤ ط/الثانية. مكتبة وهبة بالقاهرة ٢٠١٠م. وراجع بحث د محمود صـ٣٢.

(٢) راجع شرح أحاديث من البخاري صـ (٤٠٥ –٤٠٨ – ٤١٧، ٦٥٤)، وآل حميم غافر صـ ١٤.

وإنما هو ملتبس بنفس وقلب وعقل من صنع هذا النص"[١] وما في ذلك قدر راحة عجبا؛ "لأن حواشي المعاني وأشكالها وألوانها هي متعلق النظر في تذوق الكلام ونقده؛ لأنها أحاسيس النفوس واختلاجات الصدور، وما يسنح أو ينبض في سرائر القلوب، وهذا هو محض الكلام الذي نسميه أدبا" [٢].

المعنى الأم في قصيدة أبي الطيب همة سيف الدولة التي لا تفتر، وشجاعته الغالبة، وعزيمته التي لا تلين، وقد استحسن أبو الطيب لهذا المعنى جملة: "عَلَى قَدْرِ أَهلِ العَزمِ تَأتِي العَزائِمُ "لتكون مهادا، ومن ثم فهي موطئة للجملة الأم في القصيدة، وقد ألقى بها أبو الطيب في صدر كلامه، ممهدًا بها لكل ما جاء بعدها من معان، والجملة الأم هي قوله في البيت الثالث:(يكلف سيف الدولة الجيش همه .....إلخ) وهي صورة لفظية للمعنى الأم السابح في فلك الشجاعة الهائلة التي يتحلى بها سيف الدولة، والهمة العالية والعزم الصليب الذي كان في مقدمة أسباب النصر.

وهذا المعنى الأم حاضر على امتداد القصيدة، مبثوث في طول الكلام وعرضه؛ فالقصيدة محدودة الأبيات، معروفة البدء والختام، "محصورة في إطار غرض، وسياق نفسي وشعري ألقى عليها ظلاله"[٣]، وقد جاءت سائر تراكيب القصيدة وجملها، متفرعة عن الجملة الأم، ومترتبة عليها.

وأحسب من الخير أن تنقل الدراسة الخطو على طريق الشيخ أبي موسى في تحليل النصوص ما دامت تستتبع منهجه، وتقفو أثره، ومن منهجه في التحليل أن تقسم النصوص إلى فصول أو مقاطع على وفق تماسك المعنى ووحدته، وهذا

---

(١) آل حميم غافر فصلت د/محمد أبو موسى صـ ١٣. ط/١. وهبة القاهرة ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

(٢) الإعجاز البلاغي د/محمد أو موسى صـ ٩٠.

(٣) دراسة في البلاغة والشعر د/محمد أو موسى صـ ١٨٣ ط/١ وهبة بالقاهرة ١٤١١هـ.

ما تحاوله الدراسة مستضيئة بما خطته تلك اليمين الصناع، وأفرغه ذلك اليراع الخصيب:

قرطا على أذن الدنيا يزينها

وحول معصمها درًا يحلّيها

وراح يعزف ألحان الجدود على

قيثارة الدهر ألحانا تناغيها

يستخرج الدر غواصا بزورقه

ويقطع العمر للأجيال تنبيها[١].

بمراجعة أبيات القصيدة تبدى أن السياق الجملي لرائعة أبي الطيب هذه يسرح في شعب واحد، وصاحب البيان فيها يتفيأ ظلال واد خصيب، تتفتق أكمامه عن صورة مشرقة لسيف الدولة ذلك القائد العظيم، والشاعر العريب، حتى لكأن أبا الطيب قد فرغ باله إلا من ممدوحه، وفرغ لسانه إلا من ذكره، وهذه الصورة ملأت على أبي الطيب مسارب نفسه؛

فراح يرسمها شعرا وينثرها

وردا وينظمها عقدا من الكلم

يستمطر المدح من عليائه مقةً

للقائد الفذّ ربّ السّيف والقلم.[٢]

يستعين شاعر العربية الأكبر بعبقريته الفائقة؛ وبيانه العالي في وصف شجاعة سيف الدولة، ورباطة جأشه، ومضاء عزيمته، وشدة بأسه؛ فيتروى كثيرًا

(١) الأبيات من البسيط، وهي للباحث.

(٢) الأبيات من البسيط، وهي للباحث.

في انتقاء الألفاظ التي تصيب شاكلة المعنى، لينقل لنا صورة حية مفعمة بالحركة لمعركة من أشهر المعارك التي خاضها سيف الدولة في تاريخ نضاله ضد الروم في (الحدث)[١].

ومن خلال وصف الشاعر للمعركة التي انتهت بنصر مؤزر لسيف الدولة على الروم يخلع على ممدوحه أنبل السمات، ويدثره بخير السجايا؛ فيمثل مدح سيف الدولة الدلالة المركزية الأم لهذه القصيدة الرائعة.

والقصيدة – على طولها واتحاد سياقها الجملي – تتنازعها أودية معانٍ ثلاث يدور الشاعر في رحاها؛ ولا تخطئها العين، وإلا فلَم يجاوز أبو الطيب هنا أودية الإرادة والتردد والنصر، وهذه الأودية الثلاثة إنما هي المعاقد الكبرى التي تسبح القصيدة في فلكها.

أما الإرادة فمن نصيب الممدوح سيف الدولة صاحب العزيمة المضاءة، والبأس الذي لا يلين.

وأما التردد فهو تردد الأعداء من جند الروم وقادتهم تجاه سيف الدولة ما بين إقدام وإحجام.

وأما النصر فإنما هو النتيجة المنتظرة لكل متمرس لا يرهب صهيل الجياد.

---

(١) " في هذه السنة [٣٤٣ه] سار سيف الدولة نحو حصن الحدث لبنائها، وكان أهلها أسلموها بالأمان إلى الدمستق سنة ٣٣٧ فنزلها سيف الدولة بها ... سنة ٣٤٣ وبدأ في يومه فخطّ الأساس وحفر أوله بيده ابتغاء ما عند الله تعالى. فلما كان يوم الجمعة نازله ابن النقاس، دمستق النصرانية، في نحو خمسين ألف فارس وراجل من جموع الروم والأرمن والروس والبلغر والصقلب والخزرية. ووقعت المصادمة يوم الاثنين انسلاخ جمادى الآخرة من أول النهار إلى وقت العصر، وإن سيف الدولة حمل عليه بنفسه في نحو خمسمائة من غلمانه وأصناف رجاله فقصد موكبه وهزمه وظفر به وقتل نحو ثلاثة آلاف رجل من مقاتلته وأسر خلقا ... فقتل أكثرهم واستبقى البعض، وأسر صهر الدمستق وابن صهره، وأقام على الحدث إلى أن بناها ووضع آخر شرافة منها بيده في يوم الثلاثاء لثلاث عشرة ليلة خلت من رجب". نهر الذهب في تاريخ حلب للغزي ٤٦/٣. ط/الثانية. دار القلم بحلب ١٤١٩ه.

على أن هذه المعاني الجلّى للقصيدة تتفرع عنها معانٍ صغرى، وهذه المعاني الصغرى تشبه أن تكون أودية صغيرة داخل البناء الشعري والسياق النفسي للقصيدة، وحول كل محور منها تدور جملة أبيات تقل أو تكثر، وهذه الجملة من الأبيات تضيء جوانب هذا المحور، وترفد فقاره، وقد تتكاثر هاته الفروع الجزئية المنبثقة من هذا المعنى الفرعي، وتشتجر حتى يظن أنها ضمن المعاني الفرعية الأولى للقصيدة، ويوشك أن يكون المعنى الأم لهذه المعاني نديدا لمعنى القصيدة الأم، ومقصودها الرئيس،... وهكذا نجد للكلام عروقا يشبه بعضها بعضا، وتسقى بماء واحد، ثم تنتظم هذه الأفكار الصغرى في قلادة واحدة تخدم الغرض الأعظم الذي هو مدح سيف الدولة، وتدويل محاسنه، وإبرازها كنموذج عام يحتذى لمن قدر.

سبق القول أن المعنى الأم للقصيدة يتمثل في عزيمة الممدوح النافذة، وهمته الفتية المائزة، وأنها عدة النصر، وميزاب الفلاح، وما يستتبع ذلك من شجاعة الممدوح الغالب الذي يصد جيوش الأرض جمعا بهمة تقوم مقام النصر إن فاته النصر.

على أن هذا المعنى الأم للقصيدة اختار له أبو الطيب جملة أمّا لتكون صورة له، وهذه الجملة جعلها الشاعر في بداية القصيدة بعدما مهد لها بمهاد وطيء في بيتين اثنين، والجملة الأم للقصيدة إنما هي قوله (يكلف سيف الدولة الجيش همه)، وقد جاءت هذه الجملة الأم ضمن المقطع الثاني من مقاطع القصيدة، ومعاقدها الرئيسة، وهذا المقطع استغرق أربعة أبيات من جملة أبيات القصيدة البالغ عددها ستة وأربعين بيتا، وقد جاءت سائر مقاطع القصيدة طائعة لهذا المقطع متفانية في خدمته، وذلك لاشتماله على المعنى الأم، والبيت القصيد. ونعود لبيان المعاني الفرعية للقصيدة؛ للتعرف على دقائق خطرات المعاني وراء هندسة التراكيب، وهذا هو المحور الرئيس الذي يدور حوله المبحث التالي.

المبحث الثاني

المعنى الفرعي الأول

العزيمة على قدر الرجال

أول هذه المعاني الجزئية للقصيدة تقع عليها العين في البيتين الأول والثاني؛ إذ يعالجان فكرة واحدة تقول بأن العزيمة على قدر الرجال. ويجلي هذا المعنى الفرعيُّ الأول فكرةَ التواؤم بين العزم وأقدار الرجال، فعزيمة الرجل على مقداره؛ فمن كان عالي الهمة، صليب البأس عظمت عزيمته، فتحقق أمله؛ ومن كان دون ذلك فعزيمته على قدره؛ إذ الرجال – كما يقال – قوالب الأحوال إذا صغروا صغرت، وإذا كبروا كبرت.

ولا يخفى وثوق الآصرة ما بين المعنى الأم لهذا الفقار القائم على التوأمة بين العزائم وأقدار الرجال والمعنى الأم للقصيدة المتمركز حول عزيمة سيف الدولة، وبأسه الحديد، وكأن أبا الطيب توسل بمعنى البيتين الأولين ذلك المعنى العام حول العزائم وأقدار الرجال؛ ليكون ذلك مهادا لمعنى القصيدة الأم السابح في فلك الممدوح، المتوشح بعزم سيف الدولة الأبي، ومراسه الذي لا يلين.

والجملة الأم لهذا المعقد من معاقد القصيدة تتمثل في جملة المطلع: "على قدر أهل العزم تأتي العزائم" التي جاءت مقدمة منطقية لقطب الرحى، وبيت القصيد، فقد تفرعت عنها بقية الجمل بعدها، وقد – لا ريب – أحسن أبو الطيب أيما إحسان حينما اختار هذا المطلع نصبة للغرض، ومفتتحا للكلام؛ فقد استطاع بشاعريته النادرة، ودربته الحاذقة أن يضغط المعنى ضغطا واعيا في تلخيص كاشف، وسبك سديد، وطيّ ودمج عجيبين، بحيث يفرغه كاملا في جملة واحدة تتناسل منها ثلاث جمل متوسطة الطول سخرها جميعا لتكون مهادا يخدم هاته الجملة الأم للقصيدة الكامنة في البيت الثالث، فراحت جميعها تتنافس في برها

كأحسن ما يكون التنافس وأكمله، وهذا من براعة الاستهلال، وهذه البراعة في الاستهلال مما يستحسنه علماء البلاغة، ويقيسون به بيان المتكلم(١). وهذه الجمل الثلاثة هي:" وتَأتِي عَلَى قَدْرِ الكِرامِ المَكارِمُ، وتَعظُمُ في عَينِ الصّغِيرِ صِغارُها، وتَصغُر في عَينِ العَظِيمِ العَظائِمُ". وقد صارت في بناء الشعر كأنها جملة واحدة.

من المعالم العامة لهذا الفقار التقارب في البناء اللغوي بين جمل الفقار الأربع؛ حتى لكأنها أفرغت إفراغا واحدا، وكادت تتجاوز مجرد التشابه في هندسة البيان وسبكه إلى التوحد، لولا بقية من فوارق بينها؛ فقد بناها الشاعر على الجملة الفعلية المصدرة بالفعل المضارع ومتعلَّقه من الجار والمجرور المتشرب معنى الحال المتقدم على الفاعل في جميع الجمل، والمتصدر حتى على المسند في الجملة الأولى والذي أحضره الشاعر عمدا في الجمل الأربع؛ لإضافة معنى القيد المفهوم من الجار والمجرور، وقد وقعت هذه القيود من النظم موقعها، وهو الموقع الذي يطلبه الغرض، ويقتضيه السياق، فالغرض تصوير عزيمة الممدوح النافذة، وحزمه الذي لا يلين، وأنه بلغ من ذلك أمدا بعيدا، وكأن الجملة الأولى (على قدر أهل العزم تأتي العزائم) لما جرت على لسان الشاعر أوحت إليه بأخواتها؛ فسبك ثلاثتها على حذو واحد هو من الأولى قريب القرب، وشبيه البناء.

والتقديم الذي ترصده الدراسة ملمحا عاما على هذا الفقار يفيد الاهتمام، ومزيد العناية، إذ العرب من شأنهم أن يقدموا الذي هم به أعنى، وعلي بيانه

(١) ينظر: خزانة الأدب لابن حجة الحموي ١ / ١٩،٢٠ بتحقيق عصام شعيتو. ط/١ ١٩٨٧م دار الهلال – بيروت. و يراجع كلام بهاء الدين السبكي وابن يعقوب المغربي ضمن شروح التلخيص ٤ / ٥٣٥. ط/ الأولى – دار الإرشاد الإسلامي – بيروت.

أحرص، كما قرر رواد العلم العظام[١]. وقد تجلى ذلك في تقديم الجار والمجرور في الجملة الأولى (على قدر أهل العزم تأتي العزائم)، وهذا يجعل المعنى كله كأنه معقود عليه، فالحال المفهوم من التقديم يخلع على الممدوح مزيدا من الخصوصية، وكأنه وحده صاحب العزم المتفرد، وهذا رأس المقصود؛ فالعزائم تأتي، ولكنها لا تأتي خبط عشواء، ولا كيفما اتفق، إنما إتيانها يكون على هيئة مخصوصة، حال كونها على قدر أهل العزم، وكذا المكارم لا تأتي إلا على قدر الكرام، والجار والمجرور في هاتين الجملتين (على قدر أهل العزم تأتي العزائم ، وتأتي على قدر الكرام المكارم) يفيد تربية الفائدة كما قرر العلماء في متعلقات الفعل[٢]، فلو قال الشاعر: تأتي العزائم، وتأتي المكارم أفاد فقط مجرد إتيان العزائم والمكارم، لكنه لما قال: (على قدر أهل العزم ، وعلى قدر الكرام) أضاف معنى جديدا لم يكن موجودا من قبل، فالعزائم تأتي على قدر أهل العزم، والمكارم تأتي على قدر الكرام، وهكذا.

ثم إنه لما قدم هذا القيد في الجملة الأولى على الفعل الذي هو المسند فُهم منه معنى القصر فأصبحت العزائم لا تأتي إلا على قدر أهل العزم، فهي مختصة بهم، ومقصورة عليهم لا تبرحهم لما سواهم، وتقديم المسند على المسند إليه يفيد الاختصاص بمعونة السياق، كما قرر ذلك أهل العلم[٣].

---

(١) يقول سيبويه – رحمه الله وأثابه –: " كأنّهم إنَّما يقدّمون الذي بيانه أهم لهم وهم ببيانه أغنى، وإن كانا جميعاً يُهِمّانِهم ويَعْنِيانهم". الكتاب صـ ٣٤ بتحقيق عبدالسلام هارون. ط/الثالثة. الخانجي القاهرة ١٤٠٨ه.

(٢) ينظر: الإيضاح للخطيب ١١٤/٢ بتحقيق خفاجي. ط/الثالثة. دار الجيل بيروت من دون تاريخ. وخصائص التراكيب د/محمد أبو موسى صـ ٣١٧ .ط/السادسة مكتبة وهبة بالقاهرة٢٠٠٤م.

(٣) ينظر: دلالات التراكيب د/محمد أبو موسى صـ ١٧٢، ١٨٢. ط/الثانية. وهبة بالقاهرة ١٤٠٨ه.

رصدت الدراسة معلما عاما لهذا المقطع من القصيدة يتمثل في العناية الفائقة من أبي الطيب بانتقاد المفردات ونخلها، واصطفاء أنسبها بالغرض، وأبرها بالمقام، وقد ترتب على ذلك مراعاة الجانب الصوتي والإيقاعي للكلمات، حيث كرر الشاعر حرف العين ثماني مرات في هذا المقطع، وكرر حرف الراء سبع مرات، والميم كذلك كررها سبع مرات، كل ذلك في بيتين اثنين، وتكرار الحرف الواحد بهذه الكثافة يحدث – ولا ريب – نوعا من التناغي الصوتي بين الكلمات، والانسجام الإيقاعي بين الجمل، فترق مقاطع الكلام، وتلين معاطفه؛ وتتناغى أصواته؛ فتحدث عند سماعها نوعا من الإيقاع المجلجل(١).

وترتب على ذلك الملمح العام كذلك تناغم آخر بين أصوات الكلم، وأوساط البيان. ومن ردد الكلمات(العزم – العزائم – الكرام – المكارم – الصغير – صغارها – تصغر – العظيم – العظائم – تعظم) = من رددها بوعي وأناة ومفاطنة أدرك ذلك لا محالة؛ فقد ترتب على تناغيها راحة في النطق، وطواعية في الأداء، فجرت على اللسان من غير كدر، وطربت لها الآذان فور السماع، وما ذاك إلا لحسن تجاور الحروف وانسجامها، وملاطفة الكلمات وامتزاجها امتزاجا

(١) لا بدع في ذلك فقد تحدث الرماني عن التلاؤم بين الحروف، وعده وجها من وجوه الإعجاز، وذكر أن " الفائدة في التلاؤم حسن الكلام في السمع، وسهولته في اللفظ، وتقبل المعنى له في النفس لما يرد عليها من حسن الصورة وطريق الدلالة". النكت في إعجاز القرآن للرماني صـ ٩٦ بتحقيق محمد خلف الله، ود محمد زغلول سلام. ط/الثالثة. دار المعارف بمصر ١٩٧٦م. ولا غرابة، ولا استرابة؛ فـ "قد أقام القرآن أسلوبه على نظام من التآلف الصوتي العجيب، لوحظ ذلك في حروفه وكلماته وجمله، وصارت أصواته ... ألحانا لغوية رائعة كأنها لائتلافها وتناسبها قطعة واحدة قراءتها هي توقيعها" خصائص التراكيب صـ ٣٦٣.

تلين فيه وتطوع. وهكذا تعادلت الأصوات فتباسمت، ولانت معاطفها وتناسمت، فراحت تناغي خواطر القلب، ليبعث لها ما يناسبها من أحوال النفوس(١).

ومن ملامح هذا المقطع إيثار الشاعر صيغة المضارع: (تأتي – تعظم – تصغر) وقد أفادت صيغة المضارعة التجدد والتكرار؛ فكأن الشاعر اتخذ صيغة المضارع مرآة حية يعكس على صفحتها صورة الأحداث، وينقلها من خلالها للمتلقي فيراها رأي العين، وهذا شأن كل بيان حي خصيب، فاستخدام المضارع في الجمل الأربعة يفيد تجدد ما تضمنته من حكمة ومعنى عزيز في الأوقات كلها، والأزمنة كلها، فالعزائم تأتي على أقدار أهلها في جميع الأوقات والأماكن، وكذا بقية المعاني المبثوثة في الجمل الأربع التي رعاها أبو الطيب عن طريق صيغة المضارع في رياض الحدوث والتجديد، فخلع عليها تعاقب الدهور بردين من تجدد وبهاء، وقد أحدث ذلك نوعا من التوازن في نسق الكلام، وآذن بضرب من التشابه في التركيب، وصير الجمل الأربعة كأنها جملة واحدة، يشد بعضها أزر بعض في تناغم آخذ، وتوازن صوتي لا يغيب.

من ملامح هذا الفقار ظاهرة التقابل الذي نجح أبو الطيب إلى حد بعيد في توظيفه بكل أطيافه ومراتبه؛ وأقام أسلوبه على نظام من التآلف الصوتي العجيب الذي خلع على البيان آثاره النفسية؛ فألقى بظلال كثيفة على المعنى في هذين البيتين، حتى إنه ليمكن القول بأن بقية أبيات القصيدة لا تخرج بصورة أو

---

(١) " كل متكلم تصير الكلمات في لغته شيئا غير الذي هي عليه عند غيره؛ لأن لغته هي طبعه، وطريقة تفكيره، وطريقة إحساسه، وطريقة تصوره، وكل ما هو من خاص خواصه الشخصية المائزة له، وكأن كلمات اللغة تنبت نباتا خاصا في قلب ذي الطبع، تسقيه من مائه، وتربو وتنمو بما يمدها به؛ فيختلف بذلك طبعها، وطعمها، وشياتها، ورواؤها، وهذا مما لا ريب فيه، وتحديد هذه الفروق تحديدا علميا، وعدها واحدة واحدة، والنص عليها هو الأمر الصعب" الإعجاز البلاغي د/محمد أبو موسى صـ ٢٨٣.

بأخرى عن تلك الدائرة البيانية التي بناها أبو الطيب، وأبدعها في هندسة بارعة، ووعي عجيب. بيان ذلك أن أبا الطيب قابل بين عظمة سيف الدولة، وعلو منزلته، وضآلة حجم الروم وصغر مقامهم، وذلك في قوله:(وتعظم في عين الصغير صغارها، وتصغر في عين الكبير العظائم).

ولم يقف أبو الطيب عند هذا؛ فراح يوظف التقابل بين المفرد والجمع في تجلية المعنى المراد، وكأن المفرد بقلته ووهنه يمثل عجز الروم الغالب، وضعفهم الذي لا يغيب، بينما يرمز بالجمع لجيوش سيف الدولة الغفيرة، وعزائمه التي لا منتهى لها، يظهر ذلك في هذه الكلمات:(العزائم – الكرام – المكارم – صغارها – العظائم) فهذه خمسة جموع يقابلها (الصغير – العزم – العظيم)، ولا يخفى ما تحمله كلمات البيتين من معنى العزم والحزم والإصرار والصمود، وذلك من خلال سبع مفردات اختارها الشاعر بلطف رهيف تصور معاني العزة والمنعة والنصر، وهي :(العزم – العزائم – الكرام – المكارم – العظيم – العظائم – تعظم) وذلك في مقابل (الصغير – صغارها – تصغر) وهذه – ولا استرابة – تحمل معنى الضعف والهوان، والاستكانة، وكأنه يؤكد على عظم الفارق بين ممدوحه سيف الدولة عزةً ومنعةً وبين أعدائه من عقابيل الروم، فيُحمِّل الكلمات بحمولات دلالية ناطقة، تجلى هذا الفارق وتوضحه؛ ليؤكد أهمية العزيمة بالنسبة للمعركة، وأن الإصرار على النصر عدة للنصر من قبل السلاح.

وهكذا يرفدنا أبو الطيب في هذا المقطع من القصيدة بقوة هائلة وطاقة حية متجددة، فقد أصاب المحز في أوجز عبارة، ووصل إلى لبّ المعنى من أقصر طريق، لأنه يحسن كيف يسدد، ويدرك متى يشد القوس، ويبري السهام. وما ذاك إلا لسعة الذَّرع، وشدة المُنَّة، وقد عمل بنصيحة الباقلاني؛ فنظر إلى الكلام

" بسكون طائر، وخفض جناح، وتفريغ لب، وجمع عقل في ذلك"(١)؛ فاستطاع أن يجلي الناتج الدلالي الكثيف معتمدا في ذلك على ثلاثة محاور أساسية هي الأصوات والمفردات والجمل. واستثمر أبو الطيب هذه المحاور استثمارا بصيرا جعلها غنية حافلة بأصناف التكثيف والتركيز، وأفصح بها عن نبيل الأحوال، ورحيب المعاني، وجليل المقاصد وزكيّها.

وبعد فراغ الشاعر من بناء هذا المعقد من معاقد القصيدة راح يواصل قصر خواطره على سيف الدولة؛ فيجمع نفسه وعزمه على مدحه، ويصرف الكلام إلى رأس المقصود في أول تصريح باسم الممدوح بعدما أفرغ طاقته في مستهل القصيدة للتمهيد للمعنى الأم الآتي في الأبيات التالية، وهو ذلك المعنى المصور عزيمة سيف الدولة في صورة العدة والعتاد، وأنها مقدمة على كل سبب من أسباب النصر، وهي منه في الصميم.

(١) إعجاز القرآن للباقلاني صـ ١٥٤ بتحقيق السيد أحمد صقر. ط/الخامسة. دار المعارف بمصر١٩٩٧م.

المبحث الثالث

المعنى الفرعي الثاني

عزيمة الممدوح لا تعرف الكلال

أما المعنى الفرعي الثاني فهو معنيّ بتصوير عزيمة الممدوح المائزة، وهمته التي تعشق المضي، ولا تعرف الكلال، وتمثله الأبيات من الثالث حتى السادس، وفيها يقول أبو الطيب:

٣- يُكــلّفُ سَــيفُ الدَولَــةِ الجَــيشَ هَمّــهُ

وقــد عَجَــزَتْ عنــهُ الجُيوشُ الخَضارِمُ

٤ - ويَطلــب عِنــدَ النــاسِ مــا عِنــدَ نَفسهِ

وذلِــكَ مــا لا تَدَّعِيــهِ الضَــراغِمُ

٥ - يُفــدّي أَتــمُّ الطَّــيرِ عُمــرًا سِــلاحَه

نُســورُ الفَــلا أَحداثُهــا والقَشــاعِمُ

٦ - وَمــا ضَرَّهــا خَــلْقٌ بِغَــيرِ مَخــالِب

وقــد خُــلِقَتْ أَســيافُهُ والقَــوائِمُ

المعنى الأم لهذا المقطع يدور حول همة الممدوح العالية التي تعجز عن مجاراتها جيوش الأرض، والصلة قوية بين هذا المعنى والمعنى الأم للسياق الجزئي السابق في المبحث الفائت؛ فقد مهد الشاعر لهذا بذاك؛ فدخل على النفس دخول المأنوس بعدما عبّد له أبو الطيب طريقه في قلب المتلقي ، فإذا كانت الرجال قوالب الأحوال – كما تقرر في المعنى الجزئي السابق – فإن الممدوح يمثل في هذا الميدان القمة السامقة، والقبة التي لا تطاول، وهكذا تبدو الصلة بين

المقطعين؛ فالشاعر لما قدم لغرضه اختار مقدمة لها به شديد علقة، تربطها به رحم ماسة، وتأْرِزُ إليه أعطافها من قريب، و" من الحكمة ودقيق الصنعة أن يجعل الشاعر غرضه من الجملة في أنف كلامه"(١).

الجملة الأم لهذا الفقار قوله:(يُكلِّفُ سَيفُ الدَولَةِ الجَيشَ هَمَّهُ وقد عَجَزَتْ عنهُ الجُيوشُ الخَضارِمُ)، وفيها يسكن الغرض، ويظهر المقصود؛ وقد بناها أبو الطيب بناء حيا يناسب موقعها في المقطع، ويتلاءم مع منزلتها من الغرض، ومكانتها من القصيدة، فقد بنيت القصيدة عليها؛ لأنها مقصد المعنى، وعمود البناء.

من الملامح العامة لهذا المقطع حرص أبي الطيب على انتباذ المضارع معلما من معالم هذا الفقار، وهذا محمود له في سياق نفسي متحدر، وعطاء سخي موفور قد فرغ الشاعر فيه نفسه إلا من ممدوحه، فراح يرسمه في صورة حية ناطقة، تجلى مناقبه، وتظهر فضله، فكان المضارع بصيغته الثرة، ودلالته السخية المتجددة أنفع للشاعر، وأخدم للغرض، وأطوع من غيره في هندسة البيان؛ ولذا فقد بنى الشاعر بيانه هنا على الفعل المضارع المتبوع بالفاعل، ويليه المفعول، وهو عين الطريق الذي سلكه في هندسة بناء البيان في البيتين السابقين، وهذا مما ترصده الدراسة هنا وتغتنمه في تسجيل التشابه بين المعنى الجزئي السابق وهذا المعنى الذي هو أم المعاني كلها في القصيدة؛ فالمضارع سيد الموقف هنا وفارس الميدان هناك؛ إذ قد جاءت الجمل في هذا المقطع كما يلي: (يكلف سيف الدولة الجيش همه – يطلب عند الناس ما عند نفسه – يفدي أتم الطير عمرا سلاحه)، وقد بان التناغي بين صيغة المضارع ومقصود الشاعر المتغيا، ومعناه الأصيل. وذلك أن الفعل المضارع – على ما قرره علماؤنا –

(١) قراءة في الأدب القديم د/ محمد أبو موسى صـ ٧٩ الطبعة الثانية ١٩٩٨م . مكتبة وهبة بالقاهرة .

دال على إحضار صورة الحدث الدال عليه، والمشتق هو منه؛ "لأنه في أصل وضعه للدلالة على الحال، وهذه الدلالة هي أصل إحضاره صورة الفعل، والفاعل يفعله"(١)؛ حتى لـ "كأنه يجعل المعنى حاضراً بين يديك، وكأن الأفعال المضارعة في الكلام الحر مرايا تعكس لك الصور والأحداث، فلا تسمعها بأذنك فقط، وإنما تراها بعينك أيضا"(٢) ؛ ولذلك "ترى المتكلمين من ذوى الخبرة بأسرار الكلمات يعبرون به عن الأحداث الهامة التي يريدون إبرازها، وتقريرها في خيال السامع"(٣).

وأبو الطيب يريد أن ينقل لنا صورة سيف الدولة، وهو يكلف الجيش طاقته هو – وما إليها من سبيل مهما كان الجيش جرارا – وهذه الصورة شغلت حيزا كبيرا من فكر الشاعر؛ فأراد أن يعكسها للناس على صفحة بيانه، وليس كالمضارع لهذه المهمة.

قوله:(يكلف سيف الدولة الجيش همه) توطئة وإرهاص بالجملة الحالية التي هي مسكن الغرض، ومأوى الفائدة هنا، وهي قوله:(وقد عجزت عنه الجيوش الخضارم) فسيف الدولة يكلف الجيش همه، وهذا جيد، لكنه لو اكتفى بهذا التعبير من دون الجملة الحالية لفتح باب غميزة على ممدوحه، فلم يفصح لنا عن مقدار همه وهمته، والجملة الحالية تغلق هذا الباب المشرع، وتسقط هذا التزيد المتوقع.

---

(١) شرح أحاديث من صحيح مسلم دراسة في سمت البيان الأول د محمد أبو موسى ١/ ٣٢. ط/ ١ وهبة بالقاهرة ١٤٣٦هـ – ٢٠١٥م

(٢) قراءة في الأدب القديم للدكتور/ محمد أبو موسى صـ ٣٢، ٥٨ ، ٦٩ ، ٧٩ ، ٨٨. ط/ الثانية. مكتبة وهبة بالقاهرة ١٩٩٨م.

(٣) خصائص التراكيب د/محمد أبو موسى صـ ٢٦٤.ط/السادسة مكتبة وهبة بالقاهرة٢٠٠٤م.

من المعالم العامة التي ترصدها الدراسة على هذا المقطع التشابه في هندسة بناء البيان بين جمل المقطع وتراكيبه، وهو عينه الملحظ الذي سجلته الدراسة في المقطع السابق؛ الأمر الذي يعكس قدرة الشاعر على الحبك النصي، وبراعته في دقائق هندسة البيان ويتجلى ذلك التقارب هنا بين البيتين الأول والثاني؛ إذ يقول الشاعر:

يُكــلّفُ سَــيفُ الدَولَــةِ الجَــيشَ هَمّــهُ

وقــد عَجَــزَتْ عنــهُ الجُيوشُ الخَضارِمُ

ويَطلــب عِنــدَ النــاسِ مــا عِنــدَ نَفسهِ

وذلِــكَ مــا لا تَدَّعِيــهِ الضَــراغِمُ

فقد بناهما الشاعر بناء واحدا، وسار في هندسة الرصف على حذو واحد؛ فتآزرت المباني وتقاربت، فتصاقبت[1] المعاني وتشاربت؛ فالفعل المضارع هنا (يطلب) يقابله الفعل المضارع هناك (يكلف).

ومن مظاهر تقارب الرصف، والمصاهرة في هندسة البيان أن بعد الفعل في الجملتين فاعلا ومفعولا ههنا، وفاعلا ومفعولين هناك، والواو التي تصدرت جملة:(وذلك ما لا تدعيه الضراغم) لها رحم ماسة بالواو التي في قوله: (وقد عجزت عنه الجيوش الخضارم) فهي الواو الواقعة في مستهل الجملة الحالية، وجملة: (وذلك ما لا تدعيه الضراغم) تقابلها في البيت السابق جملة:(وقد عجزت

(١) تصاقب المعاني من تعبيرات ابن جني في كتابه الخصائص ٢ / ١٤٥ بتحقيق محمد علــى النجار طبعة عالم الكتب بيروت من دون تاريخ، والمراد بالتصاقب : التشــابه، والتقــارب. ينظر: أساس البلاغة للزمخشري ٢ /١٧= = بتحقيق محمود شاكر مطبعة المدني بالقاهرة ١٩٩١م، وغريب الحديث للقاسم بن سلام الهروي ٢ / ٢٣٥ بتحقيق محمــد عبــدالمعين خان.ط/ الأولى ١٣٩٦ هـ دار الكتاب بيروت.

عنه الجيوش الخضارم) وكلاهما لبيان الحال والهيئة، وقد بنى الشاعر الجملتين بناء ثريا عامرا يتلاقى مع الغرض، ويتواءم والسياق، ويصب في مصلحة المعنى الأم القائم على تجلية عزيمة الممدوح النافذة، وهمته التي لا تعرف الكلال؛ فجملة الحال الأولى(وقد عجزت عنه الجيوش الخضارم) وإن كانت جملة حالية إلا أن أبا الطيب كأنه سبكها؛ لتكون ندا للجملة الأم التي هي قوله (يكلف سيف الدولة الجيش همه) لتكون بذلك رأس المعنى المطاع، ومقصده الذي لا يغيب؛ فالممدوح لا يكلف الجيش همه وفقط، وانتهت القضية، وإنما يكلف الجيش همه، والحال أن ما في همته من الغارات والغزوات تعجز عن إدراكه الجيوش الجرارة؛ لأنه فوق طاقة البشر. وهذا تصوير لمدى ما تبلغه همته، وهو –هنا– ديدن البيان، وهم المبين.

والشيء ذاته تلقاه في جملة:(وذلك ما لا تدعيه الضراغم) فقد بناها أبو الطيب على بيان هيئة الممدوح من إرادته أن يكون الناس مثله في الشجاعة، ومطالبته أصحابه بما عنده من الشدة والإقدام والبأس والنجدة، والحاصل أن ذلك ما لا تدعيه الأسود الباسلة؛ فتمام المعنى في الجملتين متعلق بالجملة الحالية، ومدين لها بالفضل، فضل البيان بعد الإبهام، وكأن جملة: (ويطلب عند الناس ما عند نفسه) لا تفي وحدها بالغرض، ولا تقوم وحدها بالمطلوب دون أن ينضم إليها الجملة الحالية بقيدها المجلى للمعنى المبين مقصود الشاعر ونصبة البيان، فسيف الدولة يطالب أصحابه بما عنده من البأس والحزم والإقدام، والنجدة، والحال أن بأسه وعزمه وحزمه وإقدامه لا تقوى على زعمه أو ادعائه أسود الشرى من كل ضيغم باسل.

ثم يواصل أبو الطيب عزف ألحان الثناء فوق أوتار المحبة، ويوقع أهازيج الوفاء على قيثارة الإعجاب بشخصية سيف الدولة الفريدة، وسجاياه الغر فيقول:

يُفـــدِّي أَتـــمُّ الطَّـــيرِ عُمـــرًا سِـــلاحَه
نُســـورُ الفَـــلا أَحداثُهـــا والقَشـــاعِمُ
وَمـــا ضَرَّهـــا خَـــلْقٌ بِغَـــيرِ مَخـــالِب
وقـــد خُـــلِقَتْ أَســـيافُهُ والقَـــوائِمُ

وقوله: (وما ضرها خلق بغير مخالب، وقد خلقت أسيافه والقوائم) يقع مما قبله موقع الفرع من الأصل، والبيان بعد الإبهام؛ لأن قوله (تفدي أتم الطير عمرا سلاحه نسور الفلا أحداثها والقشاعم) واختيار الشاعر هذين الصنفين الأحداث والقشاعم دل على عجزهما عن طلب الرزق، لشدة الضعف بسبب كبر السن، أو رقة الجناح، مما سوغ للشاعر أن يفرع منها قوله: (وما ضرها خلق بغير مخالب) فكانت الجملة الأولى (تفدي أتم الطير عما سلاحه) موطئة لما بعدها.

من الملامح العامة لهذا المقطع – وليس بعيدا عن خدمة المعنى الأم في القصيدة – ما نثره أبو الطيب على صفحة هذا المعنى الفرعي من مراعاة النظير عن طريق "الجمع بين المتشابهات"[١] الذي أحدث نوعا من التناغي بين ألفاظ المقطع، وهذا التنادي في المعجم الشعري للشاعر مما يدل على إحساس عال بالكلمة، وخبرة بمواقع الألفاظ من البيان، وهذا التجانس تجليه هاته الكلمات، وهي من واد واحد (الطير – نسور – القشاعم – مخالب – القوائم) وكذلك يلحظ التناسب اللفظي والمعنوي[٢] بين ألفاظ مثل:(تفدي – عمرا – سلاحه – أسيافه – القوائم) كل هذا محدث، ولا ريب نوعا من التناغم الإيقاعي المسهم في بيان المعنى، وتجلية المراد. وإنما أسعف به أبا الطيب خزين هائل من المفردات

(١) مفتاح العلوم للسكاكي ٤٢٤/١ بتحقيق نعيم زرزور. ط/الثانية. دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٧ه. وينظر: نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري ١٠٦/٧. ط/الأولى. دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة ١٤٢٣ه.
(٢) ينظر: خزانة الأدب لابن حجة الجموي ٢٩٣/١.

مدعوم بطاقة حية فاعلة تخصصت في هندسة المعاني، وبناء التراكيب. وهذا التجانس بين هاته المفردات يسهم في تجلية التجانس بين الممدوح وتلك الشيم الكريمة والسجايا الفاضلة، ومرجع ذلك قدرة أبي الطيب على تحقيق الائتلاف الظاهر بين الألفاظ من جهة، و بين الألفاظ والمعاني من جهة أخرى(١).

وكذلك ترصد الدراسة من معالم هذا الفقار الطباق(٢) الواقع بين صغار النسور وكبارها في قوله (أحداثها والقشاعم) هذا الطباق القائم على "مجاورة الأضداد"(٣) يسهم في تجلية التقابل بين سيف الدولة وبين أعدائه، ويبرز التضاد المنشود بين عزيمة الممدوح وحزمه وبين تردد الروم وخورهم. ويصور كذلك الاضطراب المحموم المختبئ في نفوس الروم، وقد نطقت به عيونهم.

هذا فضلا عن الملمح العام المتمثل في الاستعارات الرائعة التي أنتجتها قدرة الشاعر الفائقة يدفعها خياله الرحيب المسيطر المقتدر على جمع شوارد الصور، وأفاريق الأفكار، وتوظيفها متى شاء، لتكون عونا له تسمح وتطوع، وقد صور النسور هنا في صورة إنسان يعرف الفضل لذويه، ويحفظ الجميل لأهله، وجلاها واقفة خاشعة تفدي سلاح الممدوح بمهجها، وتبذل في سبيله حيواتها، وإنما تكون التفدية ممن يعقل، ولا استرابة في سحر الاستعارة وجمالها(٤).

---

(١) ينظر: تحرير التحبير لابن أبي الإصبع صـ ١٩٤ بتحقيق د/حفني محمد شرف. طبعة صادرة عن لجنة إحياء التراث الإسلامي بليبيا من دون تاريخ.

(٢) ينظر: المنصف في السارق والمسروق لابن وكيع صـ ١٥٨ بتحقيق عمر خليفة. ط/الأولى. جامعة قات يونس بنغازي ١٩٩٤م.

(٣) قواعد الشعر لأبي العباس ثعلب صـ ٥٨ بتحقيق رمضان عبدالتواب. ط/ الثانية. الخانجي بالقاهرة ١٩٩٥م.

(٤) ينظر: أسرار البلاغة للجرجاني صـ ٣٠، ٤٢ وما بعدها بتحقيق شاكر. مطبعة المدني بالقاهرة من دون تاريخ. وينظر: البيان والتبيين للجاحظ ١٤٢/١ طبعة دار ومكتبة الهلال ١٤٢٣هـ.

رصدت الدراسة كذلك من معالم هذا المعقد أن أبا الطيب يستعين بواو العطف لترسيخ استقلالية الجملة المعطوفة بالواو عن معنى الجملة المعطوف عليها، وإن كانت في حقيقة أمرها لا تخرج عن معناها، فسيف الدولة الذي يكلف الجيش استيفاء مطلوبه يطلب كذلك الأصحاب والأتباع بما عنده من البأس والنجدة، وذلك ما تعجز عنه الأسود، ولا تطيقه الليوث الكاشرة.

ولحظت الدراسة أيضا حرص أبي الطيب على إحكام الروابط بين جمل المقطع، فقد ربط بين الجملتين في البيت الأول بواو الحال، واستخدم واو العطف المتشربة معنى الحالية ربطا بين الجملتين في البيت الثاني، والرحم بين الواوين لا تنكر فواو الحال يبقى فيها من أصل معناها شوب(١).

ولم تتراجع الواو عن صدارتها في طريقة أبي الطيب في رصف المعاني لهذه الفقرة من القصيدة، وقد رأيناها في البيت الأول من المقطع، وها هي ذي تطل على البيان بطاقتها التي لا تنفد، وروائها الذي لا يذبل، وثوبها القشيب الذي لا يخلق، وذلك في قوله:

وَمـــا ضَرَّهـــا خَـــلْقٌ بِغَـــيرِ مَخـــالِب

وقـــد خُـــلِقَتْ أَســـيافُهُ والقَـــوائِمُ

والبيت بجملتيه واقع مما قبله موقع البيان بعد الإبهام، فأطول الجوارح عمرا راحت تفدي سيف الممدوح بمهجها، وهذا الخبر من أبي الطيب يعوزه شيء من التفسير أو البيان؛ إذ إنه يبعث تساؤلا: ولم تفديه بأرواحها؟ فجاء الجواب متسللا في حنايا هذا البيت ذي الجملتين المترابطتين أشد ما يكون الترابط وأكمله، وفيه أومأ الشاعر إلى السبب وراء تفدية الجوارح سيف ممدوحه الذي

(١) ينظر: شرح أحاديث من صحيح مسلم صـ ٣٢.

أغناها بلحوم أعدائه عن إعمال مخالبها في طلب القوت(وما ضرها خلق بغير مخالب، وقد خلقت أسيافه والقوائم).

وتبقى الواو بين جمل المقطع، رابطا لا يبارى، وحاضرا لا يغيب، ويستعملها الشاعر هنا بين الجملتين الأخيرتين لتؤكد الندية بين الجملة التي بعدها والجملة التي قبلها، وكأن الشاعر بنى البيت على جملة الحال، فنسور الفلا صغارها وكبارها (أحداثها والقشاعم) لا يضرها أن تكون من دون مخالب، ولكن هذا المعنى لا يفيد الممدوح في شيء لو اكتفى به أبو الطيب، وتوقف عنده، وإنما المنقبة أن يكون ذلك مرجعه سيوف الممدوح المواضي، وما توفره للجوارح من لحوم العدا وأشلائهم.

ترصد الدراسة تركيز أبي الطيب في هندسة البيان على أمرين: التدرج والتقابل.

فأما التدرج فالأبيات تتصاعد في درج المعني مرقبا بعد مرقب، وتركب في معارج البيان طبقا عن طبق؛ لتضخيم القوة القتالية لسيف الدولة، والشجاعة المفرطة، فبعدما أخبر أنه يكلف الجيش طاقته، وأن الجيوش الخضارم عاجزة عن اللحاق به انتقل إلى الإخبار بتفوقه على الضراغم المعروفة أصلا بالشجاعة والمضروبة علما عليها، وصعد على سلم التعبير خطوة؛ فقال إن أطول الجوارح عمرا تفدي سلاح الممدوح بمهجها؛ لأنه يؤمن لها العيش الكريم من جثث أعدائه المتكاثرة، ويأبى الشاعر إلا أن يستمر في التدرج فيعمل الخيال الخصيب، مسترفدا أدوات صوره من خزين لغوي وفير يمده بكل ما يقتضيه الغرض، ويرفده بما يستدعيه المقام؛ فيقول متخيلا : إن هاته الجوارح لا يضرها أن تخلق من غير مخالب ففي سيوف الممدوح غنية، وفي سلاحه كفاية. وهكذا ظل أبو الطيب يتدرج بنا في مراقي المعنى درجا بعد درج، ومصعدا فوق مصعد، وهذا هو التدرج الذي لحظته الدراسة على هذه المقطع.

أما ظاهرة التقابل التي ترصدها الدراسة هنا فيجليها تلك الأجواء التقابلية التي راح أبو الطيب ينثرها فوق صفحة التعبير، ويحرص على إذاعتها؛ حيث يستمر التقابل في المعنى بين أعطاف هذا المقطع من القصيدة سنة حسنة لأبي الطيب؛ تجلية لوُكده، ووصولا إلى مقصوده ؛ فقد قابل بين جيش سيف الدولة الغالب من جهة وجيوش الأرض الجرارة من ناحية أخرى(يكلف سيف الدولة الجيش همه، وقد عجزت عنه الجيوش الخضارم)، وقابل ثانية بين همة الممدوح الواثقة وشجاعته الفائقة وبين الأسود الضواري مرة، وسائر الناس مرة أخرى (ويطلب عند الناس ما عند نفسه، وذلك ما لا تدعيه الضراغم)، وقابل بين صغار النسور وكبارها في البيت الثالث من المقطع (أحداثها والقشاعم)، ثم ختم المقطع بمقابلة بين سيف الممدوح ومخالب تلك الجوارح الكاسرة(وما ضرها خلق بغير مخالب، وقد خلقت أسيافه والقوائم). وهذه المقابلات المعنوية تخلع على الممدوح بردين من الشجاعة والإقدام، وهكذا نجح الشاعر في توظيف التقابل بين المعاني في هذا المقطع ليكون آية تفوق لسيف الدولة على أعدائه.

من سنن أبي الطيب في هندسة البيان لهذا المقطع البدء بالفعل المضارع المفيد جدا في تجلية الحدث، ونقله للمتلقي حيا بتفاصيله كأنه يعاينه، وقد تمثل ذلك في الأفعال (يكلف – يطلب – تدعيه – يفدي).

وهكذا نجح أبو الطيب عبر أبيات هذا الفقار الأربعة في تصوير همة الممدوح الفائرة، وعزمه الذي لا يلين؛ لينفذ من ذلك إلى معنى فرعي آخر يرسم فيه صورة سيف الدولة القائد العظيم المنتصر في معاركه، ومن أهمها معركة الحدث الحمراء التي انعقدت عليها معاطف الكلام في سبعة أبيات من القصيدة غرب فيها أبو الطيب وشرق، لينقل أحداثها للدنيا، وينشر وقائعها على صفحات البقاع والأصقاع، وهذا ما نراه في المقطع التالي من مقاطع هذه القصيدة الرائعة.

المبحث الرابع

المعنى الفرعي الثالث

أحداث المعركة

يمثل هذا الفقار معنى فرعيا يتجلى في بطش الممدوح الشديد، وفعله بجيوش الروم، جنودا وقادة، وذلك من خلال حرص أبي الطيب الحرص كله على تصوير معركة (الحدث) بأدق تفاصيلها، ونقلها عبر صيغة المضارع السمحة المطواعة التي قامت بدور المرايا المجلوة التي انعكست عليها أحداث المعركة، فرآها المتلقي رأي العين.، وقد استغرق الشاعر في هذا المقطع سبعة أبيات من قصيدته من السابع حتى الثالث عشر جاءت على النحو التالي:

٧ – هَـلِ الحَـدَثُ الحَـمراءُ تَعـرِفُ لَونَها
وتَعلَـمُ أَي السـاقِيَينِ الغَمـائِمُ

٨ – سَـقَتها الغَمـامُ الغُـرُّ قَبـلَ نُزولـهِ
فَلما دَنـا منهـا سـقتها الجَمـاجِمُ

٩ – بَناهـا فـأَعلَى والقَنـا يَقـرَعُ القَنـا
ومَـوجُ المَنايـا حَولَهـا مُتَلاطِـمُ

١٠ – وَكـانَ بِهـا مِثـلُ الجُـنونِ فـأَصبَحَت
ومِـن جُـثَثِ القَتـلَى عَلَيهـا تَمـائِمُ

١١ – طَرِيـدةُ دَهـرٍ سـاقَها فردتْهـا
عـلى الـدِينِ بـالخَطّيِّ والدَهـرُ راغِمُ

١٢ – تُفِيـتُ الليـالِي كُـلَّ شـيءٍ أَخذتَـهُ
وهُـنَّ لِمـا يَـأخُذنَ مِنـكَ غَـوارِمُ

١٣ - إذا كـــانَ مـــا تَنويـــهِ فِعـــلاً مُضارِعًـــا

مَضَـــى قَبـــلَ أن تُلقَـــى عَلَيـــهِ الجَوازمُ

المعنى الأم لهذا الفقار غزارة الدماء التي خلفها جيش الممدوح في قلعة الحدث التي كنى الشاعر عنها بوصف القلعة بـــ (الحمراء) [(١)]؛ فقال هل الحدث الحمراء تعرف لونها؟، وهذا المعنى الفرعي وثيق الصلة بالمعنى الأم للقصيدة، فغزارة الدماء التي يحرص الشاعر في هذا المعقد من معاقد القصيدة على إبرازها إنما هي البرهان الساطع، والحجة القاطعة على الدعوى التي أطلقها الشاعر في معنى القصيدة الأم عن عزيمة الممدوح الفائقة، وشجاعته التي لا تدارى.

وقد اختار الشاعر لهذا المعنى الأم جملة: (هَـلِ الحَـدَثُ الحَـمراءُ تَعـرِفُ لَونَها) ومستتبعاتها؛ لتكون صورة لفظية لهذا المعنى الفرعي من القصيدة، وقد تبع هذه الجملة جمل ثلاث، ربط بينها أبو الطيب بمهارة عالية، واقتدار عجيب يتساوق والغرض، ويتناغى والمقام، ويعين إلى حد بعيد في تحقيق الآصرة بين ذلك المعنى الأم لهذا المقطع والمعنى الأم للقصيدة على سواء كما سيبين بعد قليل.

وملحوظ أن الشاعر في هذا المقطع من القصيدة يعظم انتصار سيف الدولة، فيستفهم عن هذه القلعة الحمراء قلعة الحدث: هل تعرف أي الساقيين سقاها: الغمام أم دماء الروم؟ تلك الدماء الغزيرة التي أهرقتها سيوف الممدوح الذي بنى هذه القلعة فأحكم بناءها، وعلق التمائم على جدرانها، وتمائمه إنما هي من جثث القتلى، وقد كانت الفتنة مائجة بهذه القلعة جراء غارات الروم التي لا تكاد تنتهي، فكانت تضطرب تماما كالذي به مس من الجنون، فما لبث أن علق عليها التمائم

(١) هذا على الزعم بأن الحمراء وصف لها أحدثه الشاعر في قصيدته، وإلا فإن صاحب معجم البلدان عزا التسمية لأمر آخر؛ فقال "ويقال لها الحمراء لأن تربتها جميعا حمراء". معجـم البلدان ٢/٢٢٧.

حتى هدأت، وقد كانت قبل ذلك طريدة دهر؛ حيث أخرجها الدهر على يد الروم عن مدن الإسلام؛ فردها سيف الدولة إلى حياضه بدحر الروم عنها، ولذا فهو – في عين الشاعر – أقوى من الدهر، وأقدر على مقارعة النوازل، فالليالي لا تفيته ما يأخذ في الوقت الذي يفيتها الممدوح ما أخذت، ويختم الشاعر مقطعه بجعل الممدوح ممن أسعدهم الله، وجعل سعدهم في مقاصدهم، فالممدوح إذا نوى أن يفعل شيئا صار هذا الفعل ماضيا قبل أن يهم الممدوح بتنجيزه، وذلك لأنه مسدد القصد، ميمون النقيبة.

والمعنى الأم في هذا المقطع يدل مباشرة على الشجاعة المفرطة لسيف الدولة، وإلا فتلك الشجاعة هي التي أحالت قلعة الحدث بحرا من الدماء بعد أن عاث الروم فيها فسادا، فأخرجوها من مدن الإسلام لكثرة ما أغاروا عليها.

وقد اختار الشاعر لهذا المعنى الأم جملة أُمّا – كما سبق – هي قوله (هَـلِ الحَـدَثُ الحَـمراءُ تَعـرِفُ لَونَها)، و تبع هذه الجملة الأم ثلاث جمل: (وتَعلَـمُ أَيُّ السـاقِيَينِ الغَمـائِمُ ، سَـقَتها الغَمـامُ الغُـرُّ قَبـلَ نُزولـهِ ، فَلمـا دَنـا منهـا سـقتها الجَمـاجِمُ).

وأولى هذه الجمل قوله:(وتعلم أي الساقيين الغمائم) وهذه الجملة تقع من سابقتها موقع المعطوف من المعطوف عليه، وبعدها تأتي جملة (سقتها الغمام الغر قبل نزوله) وقد قطعها الشاعر عن سابقتها، وذلك لما بين الجملتين من شبه كمال الاتصال؛ إذ الجملة الأولى ألبسها الشاعر ثوب الإنشاء، وأخرجها في صورة السؤال، وجاءت الجملة الثانية، وهي قوله:(سقتها الغمام الغر ....إلخ) جوابا لها، وهكذا جاء الشاعر بالجواب بعدما شهر سيف الاستفهام على أعتاب القلعة، ليذهب عن المتلقي بوادر الشك، ويدفع عنه عاديات الظنون. فوجب الفصل بين الجملتين للتغاير ما بين السؤال والجواب،

ثم إن الجملة التالية: (فلما دنا منها سقتها الجماجم) جاءت معطوفة على سابقتها بالفاء التي تفيد التفريع، إذ قوله قبلها(سقاها الغمام الغر قبل نزوله) دعا الشاعر للحديث عن حال القلعة حين نزول الممدوح عليها بجيشه ببأسه الحديد، وجيشه الشديد.

وقد استأنف الشاعر معنى جديدا فقال بعدها (بناها فأعلى والقنا يقرع القنا، وموج المنايا حولها متلاطم)، والواو بين الجملتين في البيت الأول، أي بين قوله :(القنا يقرع القنا) وقوله بعدها :(وموج المنايا حولها متلاطم) إنما هي واو العطف، ووجودها يفيد التغاير في المعنى بين الجملتين، وواو العطف توحي باستقلال الجملة الثانية عن الأولى، وقد ندب أبو الطيب الواو مرة أخرى؛ لتكون رابطا بين جمل هذا الفقار فقال، (وكان بها مثل الجنون فأصبحت ومن جثث القتلى عليها تمائم)، وبين الجملتين هنا جاءت الفاء المفيدة للسببية والتعقب، وهذا يخدم المعنى الأم لهذا الفقار المتمركز حول غزارة الدماء المكنى بها عن شجاعة الممدوح وقوة جيشه، وفداحة ما ألحقه بجيوش الروم من القهر والتقتيل، وذلك أن الفاء طوت المسافة الزمانية والمكانية بين ما قبلها وما بعدها، وأفهمت سرعة الهدوء الذي حل بالقلعة بمجرد وصول سيف الدولة بجيشه الغالب الذي أذل الروم فاستأصل شأفتهم، وفل حدهم بعدما عاثوا في القلعة فسادا، فهدأت ثورتها، وسكن اطرابها، وما ذاك إلا بشدة بأس الممدوح ورباطة جأشه، وقوة جيشه الذي لا يغلب.

ثم صاغ أبو الطيب بقية أبيات المقطع مفتتحا كل بيت منها بجملة مقطوعة خالية من العطف، فقال في الأولى:(طريدة دهر ساقها فرددتها على الدين بالخطي والدهر راغم) وقال في البيت الذي يليه:(تفيت الليالي كل شيء أخذته، وهن لما يأخذن منك غوارم) وافتتح البيت الأخير من الأبيات الثلاثة بقوله:(إذا كان ما تنويه فعلا مضارعا مضى قبل أن تأتي عليه الجوازم).

على أن الشاعر قد استخدم العديد من أدوات الربط بين الجمل في هذه أبيات هذا المعقد؛ فهو مثلا استعمل الفاء فاختزل بها المكان والزمان – كما سبق – بين الجملتين ما قبل الفاء وما بعدها فقال:(ساقها فرددتها)؛ ليصور سرعة استرداد القلعة فور استيلاء الروم عليها، ومطاردة الدهر لها، وعاد فاستعمل الواو الحالية في آخر البيت فقال: (والدهر راغم) وبنى البيت على جملة الحال التي جعلها توشك أن تكون أصلا أو ندا للجملة التي جاءت لتبينها، وكأن كون الدهر راغما هو المعنى الأصلي الذي صور الشاعر من خلاله قوة الممدوح، وشدة بأسه.

والشيء نفسه فعله في البيت التالي فقال ممعنا في استخدام واو الحال: (تفيت الليالي كل شيء أخذته، وهن لما يأخذن منك غوارم) فجعل غرم الليالي وتخوفها من سطوة الممدوح كأنه جذر المعنى في البيت، فالممدوح يفيت الليالي كل شيء، ويأخذ منهن ما يريد، وذلك في الوقت الذي تتهيبه الليالي، وتحسب لعقابه ألف حساب، ومن هنا فجملة الحال توشك كذلك أن تكون ندا للجملة التي جاءت لبيان هيئتها، وهي قوله:(تفيت الليالي كل شيء أخذته).

وفي البيت الأخير من أبيات هذا لمقطع يأخذ السياق بحجز أبي الطيب نحو أداة الشرط (إذا)؛ ليفتتح بها بيته؛ فيكون الربط عن طريقها بين الجملة التي بعدها، وهي جملة الشرط، والجملة التالية، وهي جملة الجواب، ويفصل الشاعر بين الجملتين؛ لما بينهما من اتحاد؛ فيقول: (إذا كان ما تنويه فعلا مضارعا مضى قبل أن تأتي عليه الجوازم)، مع ملاحظة إيثار أبي الطيب لـــ (إذا) من بين سائر أدوات الشرط، "والأصل في إذا أن يكون الشرط فيها مقطوعًا بوقوعه[١]" ليخلع على المعنى مزيدا من التوكيد.

---

(١) الإيضاح للقزويني ١١٧/٢.

وقوله (أي الساقيين) فيه قوة، ومخادعة، فهو يريد إقناع المتلقي أن دماء الأعداء التي حصدتها سيوف الممدوح لا تختلف في كثرتها وغزارة انهمارها عن الغمام في شيء، فعبر عن ذلك بأن سوى بين الدماء و الغمام؛ فجعل كلا منهما ساقيا، فقال (الساقيين).

جملة: (والقنا يقرع القنا) تقع من الجملة التي قبلها (بناها فأعلى) موقع الحال والهيئة، والرائق في بيان أبي الطيب هنا أنه بنى الكلام على واو الحال، فجاءت الجملة التي بعد هذه الواو ندا للجملة التي قبلها والتي تتبعها جملة الحال، وهذا يجعل في الواو التي هي واو الحال شوبا من أصل معناها الذي هو العطف، والمهم أن الواو التي هي واو الحال في هذه الجملة جعلت معنى الكلام بعدها، وهو قوله:(القنا يقرع القنا) "يوشك أن يكون معنى معطوفا على هذه التي نعدها أما للجملة الحالية"(١). وأم الجملة الحالية هنا إنما هي قوله:(بناها فأعلى) فالبناء لا تكتمل مناقبه إلا إذا فهم بمصاحبة الجملة الحالية حيث تقارع القنا وتلاطم أمواج المنايا، وهذا يضفى على سيف الدولة مزيدا من العزم، ويخلع عليه برود الشجاعة والإقدام.

جملة: (موج المنايا حولها متلاطم) تقع مما قبلها موقع المعطوف من المعطوف عليه(٢). وأما جملة: (وكان بها مثل الجنون) فمعطوفة على جملة:(بناها فأعلى)، وجملة: (فأصبحت) مفرعة عن الجملة التي قبلها، وجملة: (ومن جثث القتلى عليها تمائم) جملة حالية واقعة من جملة: (فأصبحت) موقع الحال من صاحبه، وكأن الجملة الأم لهذه الجملة الحالية إنما هي قوله: (فأصبحت)، وما يليها منبثق عنها، وهو لها تبع.

---

(١) شرح أحاديث مسلم صـ ٣٤.

(٢) إنما جيء بواو العطف هنا؛ ليشعرنا بأن ما بعدها معنى مستقل قائم بنفسه، وفي هذه تمييز للمعنى أكمل تمييز، وهو بعدُ متساوق مع أصل معنى الواو الذي يفيد التغاير بين المتعاطفات؛ ذلك لأن " الأصل في باب العطف أن لا يعطف الشيء على نفسه، وإنما يعطف على غيره". نتائج الفكر في النحو للسهيلي صـ ١٨٦. ط/الأولى. دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٢ه.

مما رصدته الدراسة من معالم هذا المقطع نباهة الشاعر وتوفيقه في التقاط اللبنات اللغوية المعينة على تجلية المقصود؛ فالشاعر هنا مجموع النفس، مستغرق في إحكام صنعته، غير متفرق الخواطر، ولا متشتت الأنباض، يتحدث عن معركة حاسمة كان النصر فيها حليف الممدوح ومصاحبه، وقد نجح في توظيف الوسائل اللغوية – ومنها المفردات – أيما نجاح، فقد جاءت مفرداته متمكنة، لا قلقة ولا نابية، ومن يتأمل مفردات هذا المقطع يتحقق من صحة هذا الكلام، ويلحظ قدرة الشاعر على تحقيق التناسق في توزيع المفردات داخل البناء اللغوي لهذا المقطع من القصيدة.

تأمل أولا كيف وصف القلعة بـــ (الحمراء)، وهو – ولا ريب – وصف سخي فيه طاقة وحياة، ويعين على فهم الصورة التي رسمها أبو الطيب – بعدُ – لهذا القلعة، وقد أمطرتها سيوف الممدوح؛ فانهمرت عليها شلالات الدماء من جثث الروم، وأشلائهم الممزقة، فأحالتها لِلَّون الأحمر.

وتأمل الكلمات (الحدث – الحمراء – الساقيين – الغمائم – الجماجم – بناها – القنا – يقرع – موج المنايا – متلاطم – جثث – القتلى – تمائم – طريدة – دهر – رددتها – الخطي – راغم – تفيت – الليالي – غوارم – تنويه – مضى – الجوازم) = تجدها قوية مجلجلة فيها عظمة ومهابة، وسخاء في عطائها اللغوي يتناسب وجو المعركة، ويتساوق والمقصد المروم؛ وما ذاك إلا لأنها تتحدر من أغوار قلب أبي الطيب؛ لذا جاءت سخية مواتية؛ لأنه لم ينظمها اعتسافا، ولا جمعها كيفما اتفق.

والكلمات من أودية متقاربة، وكثير منها من واد واحد؛ وهي منصبغة بصبغة واحدة، وتمتص من رحيق واحد مما خلق نوعا من التناغي فيما بينها، وأمكن القول معه بمراعاة النظير خاصة بين الكلمات (الجماجم – القنا – يقرع – المنايا – جثث – القتلى – طريدة – الخطي – راغم – غوارم).

هكذا جاءت مفردات أبي الطيب في الجملة الأم لهذا المقطع وما تلاها برة بالغرض، وخادمة للمقام، وذلك ابتداء من لفظة (الحمراء) التي كنى بها الشاعر عن قوة سيف الدولة الهائلة التي صبغت طرقات القلعة وجدرانها باللون الأحمر من كثرة ما أهرق في شوارعها من دماء الروم، ومرورا بمادة (السقيا) التي كررها الشاعر ثلاث مرار (الساقيين – سقتها – سقتها)، ثم راح يصور عملية السقيا تارة من الغمام، وتارة من جماجم الروم وأشلائهم، وقد أسهم ذلك في إبراز شجاعة الممدوح، مقارنة باضطراب الروم وترددهم، وما أصابهم من ذعر وفزع فور طلوع سيف الدولة عليهم بعزمه الصليب، وجيشه الجرار، وانتهاء بلفظة (الجماجم) التي أسند إليها سقيا القلعة، وما توحي به من كثرة القتلى الدالة على قوة الممدوح وشدة بأسه.

هكذا نجح أبو الطيب في توظيف المفردة اللغوية توظيفا رائعا لخدمة المعنى، وحمّلها بحمولات دلالية حية وناطقة نجحت في تجلية الغرض والوفاء بحق المقام، وإن تعجب فعجب توفيق أبي الطيب في قنص المفردات الملائمة لجو المعركة، وتأمل – إن شئت – (القنا) وهو (يقرع القنا) وانظر (موج المنايا) وهو (متلاطم) حول القلعة، وارقب (جثث القتلى) ملقاة على الأرض، كأنهم أعجاز نخل منقعر!! هذا التنادي في المعجم الشعري يقع ولا ريب من النفس موقع القبول، ويعلى قدر الشاعر، ويستقر في ميزان الممدوح ولا استرابة.

من الملامح العامة التي رصدتها الدراسة على هذا المقطع اختيار الشاعر أسلوب الإنشاء مفتتحا لهذا المقطع، والإنشاء – لا ريب – فيه إيقاظ للسامع، وتنبيه لحواسه، واستثارة لعقله، وتنشيط لمراكز الوعي، وتحفيز لدوائر فحص البيان، وقد اختار الشاعر من أساليب الإنشاء الاستفهام، وخرج به عن معناه الأصلي إلى التفخيم والتعظيم لانتصار سيف الدولة، وما فعله جيشه بهذه القلعة المنكوبة حتى ردها إلى حياض الإسلام.

رصدت الدراسة هنا كثرة الاستعارات التي نثرها أبو الطيب على صفحة هذا المقطع من القصيدة – وهو عين ما فعله في المقطع السابق – فقد كان الشاعر عالي الحس عندما شخص الجمادات، وجعل لها روحا تدب فيها الحياة، فقلعة الحدث يُوجه إليها السؤال، وكأنها من العقلاء (هل الحدث الحمراء تعرف لونها)، والجماجم تسقيها كما يفعل السحاب، والموت له موج كموج البحر يتلاطم في مساكن الروم، ويستأصل شأفتهم، ويجتث خضراءهم، والقلعة بها جنون من كثرة الفتن، وكأنها إنسان يعقل ويجن، وجثث القتلى تمائم ترقي القلعة من الجنون، وتكون سببا في شفائها، وسيف الدولة يطارد الدهر مطاردة العدو الألد، ويسترد منه القلعة التي كانت سليبة في يده، أسيرة عنده. والدهر راغم كسير لا يستطيع أن ينبس تجاه سيف الدولة ولو ببنت شفة، والليالي تخشى سيف الدولة حتى إنه ليسلبها كل شيء، ولا تجرؤ على مجرد التشكي، وهكذا يرد سيف الدولة الصمصام هذه الطريدة إلى حياضها، والعدو الألد بجنوده مقنعون مهطعوا رءوسهم لا يرتد إليهم طرفهم، وأفئدتهم هواء، والرحم قوية بين كل ذلك وبين المعنى الأم للقصيدة السابح في فلك همة الممدوح العالية، وعزمه الذي لا يلين؛ فما هاتيك الصور الخصبة سوى دلائل وبراهين على دعوى أبي الطيب في معنى القصيدة الأم أن همة سيف الدولة تعجز عنها جيوش الأرض.

بمثل هذا الحذق والاقتدار راح أبو الطيب ينثر ألوان الاستعارة على هذا المقطع لتسهم في تصوير المعنى المراد، وتجلية المقصد المؤم، ولا بدع في ذلك فالاستعارة هي الأقدر من بين ألوان البيان على تجسيد المعاني، وتشخيص الوقائع؛ لإخراج الجماد في صورة الحي، وقد أشاد بها عبد القاهر[١].

من المعالم العامة لهذا المعقد من معاقد القصيدة الجملة الفعلية التـــي راح يتقاسمها من صيغ الأفعال المضارع والماضي، وقد أحسن الشاعر توظيف الفعلين

(١) ينظر كلام الشيخ في الأسرار عن جمال الاستعارة وسحرها. صـــ ٤٢.

في خدمة الغرض، وتحقيق المراد، فالماضي بما فيه من دلالة على تحقق الوقوع يتناسب مع جو المعركة الذي يزاوله أبو الطيب، ويحرص على تجليته في صورة المحقق وقوعه الذي لا يشك في حصوله ولا طرفة عين، وقد بنى الشاعر جمل هذا المقطع على عدد من الأفعال الماضية بلغت في مجملها اثني عشر فعلا ماضيا، حرصا من الشاعر على تثبيت الخبر، وأن يزيح عنه كل ما عساه أن يعلق به من عوالق الاسترابة، وغبار الشك؛ فجاءت الأفعال على النحو التالي(سقتها – دنا – سقتها – بناها – أعلى – كان – أصبحت – ساقها – رددتها – أخذته – كان – مضى).

أما صيغة المضارع فقد اكتفى أبو الطيب منها بخمسة أفعال رآها كافية لنقل جو المعركة، وتصوير وقائعها في معرض الواقع المتجدد، وصورة الحاضر الذي لا يغيب، والأفعال هي (تعرف – تعلم – يقرع – تفيت – يأخذن)، وقد كانت كفيلة بنقل أحداثها حية كأنها تقع لتوها، فأدت صيغة المضارع بذلك وظيفة المرايا الحرة تنعكس عل صفحاتها صور الأشياء؛ فيراها الناظر إليها رأي العين.

سجلت الدراسة التناغي بين المعنى الأم للقصيدة الدائر حول عزيمة الممدوح وشجاعته، والذي اختار له الشاعر جملة أُمّا هي قوله: (يكلف سيف الدولة الجيش همه) وبين المعنى الأم لهذا المقطع الفرعي المنبعث من استبسال سيف الدولة، وضراوة قوته التي أفقدت الروم توازنهم، وتركتهم في تخبطهم يعمهون، وقد اختار الشاعر لذلك المعنى الأم قوله: (هل الحدث الحمراء تعرف لونها وتعلم أي الساقيين الغمائم)؛ ليكون هو الجملة الأم لهذا المعنى، وهو كما ترى لا يعزف بعيدا عن الوتر، ولا يغرد خارج السرب، بل يعاضد قصد الشاعر، ويقع من مرمى القصيدة في الصميم.

ومن الملامح العامة التي استمر دبيبها في معاطف هذا المقطع جو المقابلات التي راح الشاعر يبثها في أنحاء الجمل، وبين أنساق التراكيب؛ فقد قابل أولا بين الساقيين الغمام وجماجم الروم، حيث جمعهما في قران.

وقابل ثانيا بين جنون القلعة المتمثل في اضطرابها جراء تتابع الهجمات عليها من قبل الروم والهدوء والتمائم الواقية من جثث العدا التي أذهب الله بها السقم؛ فغار المس، وانتقه المصاب.

وقابل ثالثا بين مطاردة الدهر لقلعة الحدث واغتصابها من أهلها، وإخراجها عن رقعة الدولة المسلمة ورد الأمور إلى نصابها من قبل الممدوح بزوده عن حياض القلعة، وردها إلى رياض الإسلام.

وقابل رابعا بين فعل الليالي وفعل الممدوح الذي يأخذ من الليالي ما يطلب، وتعجز الليالي عن أخذ شيء منه، فأسياف عزمه لا تغمد، وأمواج بأسه لا تهدأ، وأطياف حزمه لا تغيب.

وقابل خامسا وأخيرا في هذا المقطع بين الزمنين الماضي والمستقبل؛ فالفعل الذي ينتويه الممدوح في المستقبل يصبح فور انتوائه فعلا ماضيا منذ حين.

مثل هاتيك المقابلات تتساوق والمعنى الأم لهذا المقطع السابح في جو المعركة الحامية، التي هي في الأصل مقابلة بين ضدين، وقد انهمرت فيها دماء الأعداء كالغمام تمطر القلعة المنكوبة مثل أفواه القرب؛ إذ تلعب المقابلات دورا حيويا في تصوير قوة الممدوح الخارقة مقارنة بأعدائه من الروم وأعوانهم، ولا يبعد هذا أبدا عن المعنى الأم للقصيدة الدائر حول عزيمة سيف الدولة الفتية، ونجوم مجده التي لا تخنس، وشموسه التي لا تغيب.

وهنا يفرغ أبو الطيب من تصوير هذا المقطع؛ لينتقل منه إلي معقد جديد من فقار هذا القصيدة ومعاقدها، متحدثا فيه عن تردد الروم وجبنهم، وعدم الجدوى من عتادهم، وهذا ما يسفر عنه المبحث التالي.

المبحث الخامس

المعنى الفرعي الرابع

لا جدوى من عتاد الروم

هذا المعنى تصوره الأبيات من الرابع عشر حتى الحادي والعشرين، وقوامه عدم الجدوى من عدة الروم وعتادهم بسبب ترددهم وخوفهم، وأبياته على النحو الآتي:

١٤ – وكيفَ تُرَجِّي الرُومُ والروسُ هَدمَها

وَذا الطَعنُ آسَاسٌ لها ودَعائِمُ

١٥ – وقد حاكَمُوها والمَنايا حَواكِمٌ

فما ماتَ مَظلُومٌ ولا عاشَ ظالِمُ

١٦ – أَتَوكَ يَجُرُّونَ الحَدِيدَ كأنّما

سَرَوْا بِجِيادٍ ما لَهُنَّ قَوائِمُ

١٧ – إذا بَرَقُوا لم تُعرَفِ البِيضُ مِنهُمُ

ثِيابُهُمُ من مِثلِها والعَمائِمُ

١٨ – خَمِيسٌ بِشَرق الأرضِ والغَربِ زَحفُهُ

وفي أذُنِ الجَوزاءِ منهُ زمازِمُ

١٩ – تَجَمّع فيهِ كُل لِسنٍ وأُمَّةٍ

فما يُفهِمُ الحُدَّاثَ إلا التَراجِمُ

٢٠ – فلِلّهِ وَقتٌ ذوَّبَ الغِشَّ نارُهُ

فلم يَبقَ إلا صارِمٌ أو ضُبارِمُ

٢١- تَقَطَّـــع مـــا لا يَقطَـــعُ الـــدِرعَ والقَنـــا

وفَـــرَّ مـــنَ الفُرســـان مَـــن لا يُصـــادِمُ

بهذا الاستفهام الحي ذي الطاقة المتجددة استهل أبو الطيب هذا المقطع من القصيدة والذي يتمثل معناه الأم في خيبة مساعي الروم، وبوار أمانيهم، وعدم جدواهم من عدتهم وعتادهم بسبب ترددهم، وخوفهم من جيش الممدوح الغالب الذي لا يقهر.

والصلة بين المعنى الأم للقصيدة وذلك المعنى صلة قوية لا تنكر؛ فمرجع خيبة الآمال عند الروم، والسبب في ترددهم إنما هي الرهبة من جيش سيف الدولة، ذلك الجيش العظيم الذي يكلفه الممدوح همه، وقد عجزت عنه الجيوش العظام، فذلك المعنى الفرعي من المعنى الأم بمنزلة الدليل من الدعوى، والمعنى الأم معه كالزعم المشفوع بالبرهان؛ فالدليل على عزيمة الممدوح الماضية التي أثبتها له الشاعر في معنى القصيدة الأم إنما هو بوار سعي الروم، وخيبة أملهم، وترددهم بسبب خوفهم من هذه العزيمة الفذة، والبأس المقتدر.

والجملة الأم لهذا المعنى الفرعي يمثلها البيت الأول من هذا الفقار الذي حمّله أبو الطيب بحمولات دلالية ناطقة عن طريق جملة الاستفهام المدعومة بواو الحال تلك الواو التي بني عليها الشاعر جملته، فهو ينكر على الروم طمعهم في هدم القلعة، وقد ذكر من عدتهم وعتادهم ما ذكر؛ لذا كان عليه الاستعانة بالجملة الحالية: (وذا الطعن آساس لها ودعائم)؛ ليدخل كلامه على النفس دخول المأنوس؛ إذ مردّ إنكاره عليهم إنما هو طعن الممدوح فيهم، وإعماله السيوف في رقابهم، وليس قلة عددهم، ولا ضعف عُددهم. كيف وقد قال فيهم: خَـــمِيسٌ بِشَـــرقِ الأرضِ والغَربِ زَحفُهُ وفـــــي أذُنِ الجَـــــوزاءِ منـــهُ زمـــازِمُ؟.

تحددت إذن الجملة الأم لهذا المقطع، وبان أن أبا الطيب بناها على جملة الحال الواقعة بعد الواو التي سبقها الشاعر بصيغة إنشائية ألبسها الشاعر ثوب

الاستفهام. والإنشاء فيه – لا جرم – إيقاظ للمتلقي، وهو في الكلام الحر بمثابة أجراس التنبيه التي تنبه الغافل، وتوقظ النومان.

من معالم هذا الفقار تسيّد الفعل الماضي، وهيمنته على معاقد الجمل في أنساق التراكيب، وهذا يتناسب مع رغبة الشاعر في إبراز الأحداث في هذا المقطع في صورة الحقائق الثابتة التي لا يمترى في وقوعها، وذلك يخدم الغرض المؤم، ويجلي الغاية المستهدفة من شجاعة الممدوح الطاغية، وعزيمته الفتية، وبأسه الشديد عن طريق تصوير جيش الروم بعدته وعتاده، ثم بيان ترددهم برغم ذلك؛ ليصب هذا في الأخير في مصلحة سيف الدولة الذي بلغ من قوة جيشه وشدة عزمه أن خميسا بهذا الحجم المهول الذي يسد الشرق والغرب يتقهقر أمامه خائب مسعاه مشئوم النقيبة.

لقد استعان الشاعر في هذا المقطع ثُمَانِيِّ الأبيات بعدد من الأفعال الماضية بلغت في مجملها عشرة أفعال، وهي كالآتي: (حاكموها – مات – عاش – أتوك – سروا – برقوا – تجمع – ذوّب – تقطع – فرّ)، بل إنه لما استخدم الفعل المضارع استصحب معه (لم) وهي – كما قرر علماؤنا – تمحض المضارع لمعنى الماضي؛ إذ النفي يكون مسلطا على الزمن الماضي دون الحاضر(١)، وهذا الحرص من أبي الطيب على ذيوع صيغة الماضي يعكس رغبته في إبراز الحوادث في صورة الحقائق الثابتة التي لا يخالجها شك، ولا تساورها استرابة، وهو إذ يختار صيغة الماضي فإنما يؤكد معناه الأم لمقطعه هذا، ذلك السابح في فلك عزة الممدوح ومنعته، وعظمة جيشه وغلبته، مكنيا عن ذلك بتصوير تردد الروم، وخوفهم على كثرة عَددهم وعُددهم.

---

(١) من الثابت عند النحاة أن (لم) " تدخلُ على الأفعال المضارعة، واللفظُ لفظُ المضارع والمعنى معنى الماضي" الأصول في النحو لابن السراج بتحقيق عبد[رب] الحسين الفتلي ١٥٧/٢ طبعة مؤسسة الرسالة بيروت من دون تاريخ.

استمر توظيف الشاعر للمقابلات لتكون رابطا بين جمل هذا المقطع ومعاقده، فقد قابل أولا بين الروم بجيوشهم وعتادهم وطعن سيف الدولة، وإعماله السيف في رقابهم حيث قال:(الروم والروس)، وأشار إلى سيف الدولة وشدة طعنه؛ فقال: (وذا الطعن آساس لها ودعائم).

وقابل ثانيا بين المظلوم المتمثل في أهل قلعة الحدث قبل تدارك سيف الدولة لها، والظالم الذي يمثله جند الروم، وأذنابهم من الروس والتركمان، وبيّن حياة ذلك وموت ذاك؛ فقال:(فما مات مظلوم ولا عاش ظالم). وذكر ثالثا شرق الأرض في مقابل غربها، وذلك في معرض حديثه عن ضخامة جيش الروم وكثرة عددهم؛ فقال:(خميس بشرق الأرض والغرب زحفه).

وقابل رابعا بين لسان الروم واللسان العربي المبين، وذلك لما تعرض لذكر الجيش الضخم لمعسكر الروم، وأنه تجمع فيه حلفاء الروم من كل جنس ولغة؛ فقد تداعي إلى الروم يومها خلق كثير من الروس والبلغار وغيرهم، وقد أومأ الشاعر إلى ذلك بقوله:(تجمع فيه كل لسن وأمة فما يفهم الحداث إلا التراجم).

وقابل خامسا بين الضعيف من الجند المتمثل في معسكر الروم بالطبع والشجعان المغاوير من قادة المسلمين وجنودهم؛ فقال:(فلله يوم ذوب الغش ناره فلم يبق إلا صامد أو ضبارم).

وهكذا نجح أبو الطيب في توظيف المقابلات على امتداد هذا المقطع لخدمة الغرض، وتحقيق المرام.

من معالم هذا المقطع من القصيدة تسيد جملة الحال، واعتماد الشاعر عليها في هندسة البيان؛ فقد استدعاها أبو الطيب فقط في هذا المقطع خمس مرات، وألبس بيانه ثوب الحالية في الجمل الآتية:(وذا الطعن آساس لها ودعائم – وقد حاكموها – والمنايا حواكم – يجرون الحديد – وفي أذن الجوزاء منه زمازم)، ولوحظ يقظة أبي الطيب في بناء الجملة الحالية بما يتناسب والغرض، ويتناغى

والمقام، حيث إن الجمل الخمسة تغلبت فيها الجملة الاسمية على الفعلية، فجاءت الاسمية في ثلاث من مجموع الجمل الخمسة، وهي (وذا الطعن آساس لها ودعائم – والمنايا حواكم – وفي أذن الجوزاء منه زمازم) بينما عبر بالفعلية في جملتين منها، وهما قوله: (وقد حاكموها – يجرون الحديد)، وفي غلبة الاسمية على صياغة جملة الحال في هذا المقطع حرص من أبي الطيب على إبراز الحقائق المشتملة عليها هذه الجمل في صورة الثابت الذي لا يتغير، المستقر الذي لا يريم، ولا شك أن الجملة الاسمية بدلالتها على الثبوت والدوام بأصل وضعها[١] تكون لهذا الغرض أوفى، وبصحبته أجدر، وفي هندسة البيان من الفاعلين.

من معالم هذا المقطع التشاكل اللفظي والمعنوي الذي أشاعه أبو الطيب في أبياته التي جاءت فيها المفردات والجمل متآزرة لرسم صورة كلية لحيرة الروم وتخبطهم – على ما بهم من قوة –؛ وصولا لتعظيم الممدوح عن طريق بيان السبب وراء خوف هؤلاء القوم، ذلك السبب الراجع إلى عزة الممدوح ومنعته، وشدة جيشه وغلبته، ومن ثم فقد تجلى هذا التشاكل في المفردات الآتية(الطعن – المنايا – مات – يجرون الحديد – البيض – قوائم – جياد – خميس – زحفه – صارم – ضبارم – الدرع – القنا – فرّ – الفرسان – يصادم)، وهذا التنادي في المعجم الشعري يعد رابطا قويا ومعينا على تماسك النص، وهو – لا جرم – من محسنات السبك البياني، ومن جنود الحبك النصي؛ فلا بدع أن يستعين به شاعر في حجم أبي الطيب لتصميم أدق التفاصيل الخاصة بهندسة بناء البيان.

(١) ينظر: جواهر البلاغة للهاشمي بتحقيق د/ يوسف الصميلي. صـ ٦٧ . المكتبة العصرية بيروت من دون تاريخ.

لم تغب جملة القصر عن هذا المقطع؛ فقد استدعاها أبو الطيب مرتين؛ حيث قال في الأولى: (فلم يفهم الحداث إلا التراجم) وقال في الثانية: (فلم يبق إلا صارم أو ضبارم)، وأسلوب القصر لا شك من الأساليب الغنية العامرة[١].

ولما فرغ أبو الطيب من تصوير هذا الفقار المعنيّ بتصوير خيبة مساعي الروم، وترددهم، وخوفهم من الممدوح – على كثرة عددهم، وقوة عتادهم – راح يتحدث عن الممدوح، مصورا إياه وسط الحومة، رابط الجأش، وبسام المحيا، والموت من حوله يتخطف الناس، وكأن الممدوح في جفن الردى وهو نائم، وقد استغرق ذلك المشهد عشرة أبيات من البيت الثاني والعشرين حتى الثاني والثلاثين، وهي مناط المبحث التالي.

(١) ينظر: عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح لبهاء الدين السبكي ٤٠١/١ بتحقيق د/عبدالمجيد هنداوي. ط/الأولى. المكتبة العصرية بيروت لبنان ١٤٢٣ه.

المبحث السادس

المعنى الفرعي الخامس

قوة الممدوح الباهرة

القوة الباهرة لسيف الدولة جاءت محورًا مركزيَّ الدلالة لهذه الفكرة الفرعية، ووسع ذلك عشرة أبيات من القصيدة هي الأبيات من الثاني والعشرين حتى الثاني والثلاثين، وأبياته على النحو الآتي:

٢٢- وَقَفتَ وَما في المَوتِ شَكٌّ لِواقِفٍ

كَأَنكَ في جَفنِ الرَّدَى وَهْوَ نائِمُ

٢٣ - تَمُرُّ بِكَ الأَبطالُ كَلْمَى هَزِيمةً

ووَجهُكَ وَضَّاحٌ وثَغْرُكَ باسِمُ

٢٤ - تجاوَزتَ مِقدارَ الشَجاعةِ والنُهَى

إلى قَولِ قَومٍ أَنتَ بالغَيب عالِمُ

٢٥ - ضَمَمتَ جَناحَيهم على القَلبِ ضَمّةً

تَمُوتُ الخَوافِي تحتَها والقَوادِمُ

٢٦ - بِضَربٍ أَتَى الهاماتِ والنَصرُ غائبٌ

وَصارَ إلى اللبَّاتِ والنَصرُ قادِمُ

٢٧ - حَقَرتَ الرُدَينيَّاتِ حَتَّى طَرَحتَها

وحَتى كأنَّ السيف لِلرُمحِ شاتِمُ

٢٨ – ومَـــن طَلَــبَ الفَتــحَ الجَــلِيلَ فإنَّمــا

مَفاتيحُــهُ البِيــض الخِفــافُ الصَــوارِمُ

٢٩ – نَـــثَرتَهُمُ فَـــوقَ الأُحَـــيدِبِ كُلِّـــهِ

كَمــا نُــثِرت فَــوقَ العَــرُوسِ الــدَراهِمُ

٣٠ – تَــدُوسُ بِــكَ الخَــيلُ الوُكورَ على الذُّرَى

وقــد كَــثُرَت حَــولَ الوُكــورِ المَطاعِمُ

٣١ – تَظُـــنَّ فِـــراخُ الفُتــخِ أَنــكَ زرتَهــا

بِأُمَّاتِهـــا وَهْـــيَ العِتـــاقُ الصَّــلادِمُ

٣٢ – إِذا زَلِقَـــت مَشَـــيتَها بِبُطُونِهـــا

كَمـــا تَتَمشَّــى فــي الصَعِيــد الأَراقــمُ

المعنى الأم لهذا الفقار تجاوزُ الممدوح مقدار الشجاعة والنهي المعهود بين الناس، والخروج إلى الحد الذي يوشك أن يكون إعجازا؛ حيث الوجــه الوضــاح وسط الحومة، والثغر الباسم عندما حمي الوطيس، وما يستتبع ذلك مــن رباطــة الجأش، وشدة المراس.

والصورة اللفظية لهذا المعنى التي هي الجملة الأم إنما هي قوله: (وقفــت وما في الموت شك لواقف، كأنك في جفن الردى وهو نائم).

ومما ترصده الدراسة هنا قوة الرحم، ومتانة الآصرة بــين هــذا المعنــى الفرعي والمعنى الأم للقصيدة؛ إذ معنى القصيدة الأم لا يعدو عزيمــة الممــدوح القاهرة التي تقوم مقام النصر، وهذا المعنى يدلل على ذلك بالإخبار عن وقــوف الممدوح في ثبج الحومة، والموت يتخطف الناس من حوله، وكأن تلك العزيمــة

المائزة التي نصبها الشاعر، معنى أُمّا للقصيدة هي الوقود الذي استمد منه الممدوح شدة مراسه مع العدو، وصموده، رابط الجأش في الميدان.

كما يلحظ أيضا – وهذا أهم – التشابه في السمت البنائي بين الصورة اللفظية للمعنى الأم والصورة اللفظية لهذا المعنى الفرعي، فالشاعر في هندسة بناء البيان سلك مع الجملة الأم للمعنيين سبيلا واحدا، وراح ينقل الخطو في الجملتين على ذات الطريق، فالجملة الأم للقصيدة استصحبت ثوب الحالية؛ فقال فيها أبو الطيب:(يكلف سيف الدولة الجيش همه، وقد عجزت عنه الجيوش الخضارم)، وهو عين ما صنعه هنا مع الجملة الأم لهذا المقطع التي قال فيها: (وقفت وما في الموت شك لواقف)، وإن كان ثمة فارق دقيق بين هندسة البيان في الجملة الأم للقصيدة: (يكلف سيف ... إلخ وبين الجملة الأم لهذا الفقار: (وقفت وما في الموت شك ... إلخ، وهو أن جملة الحال في الأول سبقتها جملة فعلية فعلها مضارع (يكلف) بينما كان الفعل هنا ماضيا (وقفت) وهذا يتناغى والغرض، ويستقيم ومقصود الشاعر في الحالين؛ فأبو الطيب في قوله (يكلف) يريد أن يصور عزيمة الممدوح في صورة المتجدد الذي لا ينفد، فطاقة سيف الدولة طاقة حية ومتجددة، وهو ما يلائم المعنى الأم للقصيدة.

أما هنا فهو يحكي حالا ماضية وقف فيها الممدوح في الحومة في الوقت الذي لم يتسلط فيه شك على نفاذ الموت لكل واقف، وهذه دعوى تحتاج من أبي الطيب إلى مزيد من التثبيت والتأكيد، ولذا عبر بالماضي ليضفي على دعواه تحقيقا وثبوتا وتأكيدا.

وقد رصف الشاعر بيانه في الجملتين معتمدا على جملة الحال التي بنى عليها مقصده، واعتمدها في هندسة البيان حتى صيرها توشك أن تكون ندا

للجملة التي من أجلها جاءت، وببيانها عُنيت، وقد سبق بيان ذلك مع الجملة الأم للقصيدة(١).

أما هنا في هذا المقطع فقد بنى أبو الطيب جملتـــه الأم علـــى واو الحـــال؛ والحال قيد؛ فليس المعنى في أن يقف الممدوح، وإنما الشأن في رباطة الجـــأش، وطول المراس، فلو وقف الممدوح ألف سنة ما كان لوقوفه معنـــى إلا بانضـــمام معنى جملة الحال إليه، فالمحمدة في الوقوف حال كون الموت لكل واقف لا يشك فيه، وهكذا يتشابه البناء البياني في الجملتين، وكأنهما يخرجـــان مـــن مشـــكاة واحدة، وهذا يؤكد القول بالتماسك النصي في هذه القصيدة الرائعة.

كلمة السر في هذا المقطع إنما هي جملة الحال التي عـــرف أبـــو الطيـــب فاعليتها؛ فندبها لخدمة المعنى الأم في هذا المقطع ثماني مرار؛ فجـــاءت علـــى النحو الآتي: (وما في الموت شك لواقف – وهو نائم – ووجهك وضاح – وثغرك باسم – والنصر غائب – والنصر قادم – وقد كثرت حول الوكور المطاعم – وهي العتاق الصلادم).

وما من شك في أن الشاعر قد صحبه التوفيق عنـــدما اســـتعان بالجملـــة الحالية، واعتمد عليها في هندسة بيانه، سيما في هذا المعقد من معاقد القصـــيدة الذي محضه أبو الطيب للحديث عن شجاعة الممدوح المعجزة، وبأســـه الـــذي لا يلين.

الفعل الماضي كذلك كان من المعالم الرئيسة لهذا الفقار، فقد استدعاه أبـــو الطيب أربع عشرة مرة (وقفت – تجاوزت – ضممت – أتى – صار – حقرت – طرحتها – طلب – نثرتهم – نُثرت – كثرت – زرتها – زلقت – مشـــيتها) فـــي

(١) ينظر: صـــ ٣٨ من هذه الدراسة.

مقابل أربع مرات فقط لصيغة المضارع (تمر – تدوس – تظن – تتمشى)، بل حتى هاته المرات الأربع كانت ضمن حكاية عن حال ماضية، فهي ماضية في المعنى، وإن كانت مضارعة في اللفظ والصورة، وصنيع أبي الطيب هذا صنيع مدروس، ولم يأت ضربة لازب، ولا كيفما اتفق؛ فالشاعر معنيّ في معقده هذا من معاقد القصيدة بتصوير ثبات الممدوح في المعركة، ورد محامد القتال إليه، وخلع معاطف الصمود عليه، وتصوير تلك الشياة للممدوح في صورة الثابت الذي لا يتغير، الحقيق الذي لا يمترى فيه، وليس كالفعل الماضي في تحقيق هذا الهدف، ومن ثم ركز أبو الطيب عليه، وحشد البيان للتوجه إليه.

ومن معالم هذا المقطع ضمير الخطاب الذي نوع فيه أبو الطيب ما بين الكاف والتاء، وقد بلغ عدد ضمائر الخطاب في هذا المعقد أربعة عشر ضميرا جاءت على النحو التالي:(وقفتَ – كأنك – بك – وجهك – ثغرك – تجاوزتَ – أنت – ضممتَ – حقرتَ – طرحتَها – نثرتَهم – بك – أنك – مشيتَها). وضمير الخطاب يتلاءم مع مقطع من مقاطع القصيدة يدور حول قوة الممدوح الباهرة التي راح الشاعر يبرزها من طريق حديثه عن جو المعركة التي كان سيف الدولة شمسها وضياءها، ومن ثم فالتوجه بالخطاب إليه معين لسياق التعظيم والتفخيم.

وبعدما فرغ أبو الطيب من الحديث عن سيف الدولة وسط الحومة، رابط الجأش، وبسام المحيا، والموت من حوله يتخطف الناس، وكأن الممدوح في جفن الردى وهو نائم، = راح يتحدث عن نتيجة تلك المعركة التي كان قد توفر على نقل أحداثها على امتداد هذا المقطع المنصرم، وقد استغرق حديثه عن نتيجة المعركة ستة أبيات من البيت الثالث والثلاثين حتى البيت الثامن والثلاثين، وهو ما تتناوله الدراسة في المقطع التالي.

المبحث السابع

المعنى الفرعي السادس

نتيجة المعركة

يكمن هذا المعنى الفرعي في الحديث عن نتيجة المعركة، ودحر الروم، وانقلاب السحر على الساحر، وأبيات هذا المعنى ست، وهي من البيت الثالث والثلاثين حتى الثامن والثلاثين كالآتي:

٣٣ – أَفِـــي كُـلِّ يـومٍ ذا الدُّمسـتُق مُقـدِمٌ
قَفـاهُ عـــلى الإِقـدامِ لِلوَجـهِ لائِـمُ

٣٤ – أَيُنكِـــر ريـــحَ اللّيـث حـتّى يَذُوقَـه
وقـد عَـرفَتْ رِيـحَ الليُـوث البهـائِمُ

٣٥ – وقـــد فَجَعَتـهُ بِابنِـهِ وابـنِ صهـرِهِ
وبـالصِهرِ حَـملاتُ الأَمـيرِ الغَواشـمُ

٣٦ – مَضَـى يَشكُرُ الأَصحابَ في فَوتِهِ الظُبى
لِمَـا شـغلتها هـامُهُم والمَعـاصِمُ

٣٧ – ويفهَـمُ صَـوتَ المَشـرفيَّةِ فيهِـمِ
عـلى أَنَّ أَصـواتَ السُـيُوفِ أَعـاجِمُ

٣٨ – يُسَـرُّ بمـا أَعطـاكَ لا عَـن جَهالـةٍ
ولكِـنَّ مَغنومـاً نجـا مِنـكَ غـانِمُ

الجملة الأم، أو الصورة اللفظية لهذا المعنى الفرعي أرادها الشاعر أن تكون في قوله: (أفي كل يوم ذا الدمستق مُقدِمٌ قفاه على الإقدام للوجه لائم)، وقد فرغ فيها أبو الطيب كل ما أراد تفريغه من معنى في هذا المقطع؛ فالدمستق يأتي كل يوم مأسورا أو معتذرا ، وقد استعان أبو الطيب بالخيال ليكون سفيرا حسنا إلى المتلقي يصور له الهزيمة النكراء التي مني بها هؤلاء القوم أمام جيوش سيف الدولة؛ حيث جاء كبير القوم معتذرا، وراح القفا منه يلوم الوجه على مقدمه، ولعل مرجع ذلك اللوم من القفا للوجه أنه لشدة هوانه وفرط حقارته ما كان يمر على أحد من الجالسين في بلاط سيف الدولة حتى يتلقى منه صفعة على قفاه؛ فراح ذلك القفا المحمر من شدة الضرب يلوم الوجه على مقدمه أصلا، وهذا الأسلوب فيه استعارة لا تخلو من تهكم، وقد وظفها الشاعر لخدمة المعنى، وبيان الغرض.

الملحظ نفسه الذي رصدته الدراسة في المقطع السابق حول التشابه في هندسة البيان بين الجملة الأم للمعنى الفرعي السابق والجملة الأم للمعنى الأم للقصيدة = هذا الملحظ عينه ترصده الدراسة هنا مع هذا المقطع الفرعي من مقاطع القصيدة؛ فقد استعان أبو الطيب للمرة الثالثة على التوالي بالجملة الحالية لتكون وسيلته لبيان معناه الأم في المقطع، حيث إن الجملة الأم لهذا المقطع إنما هي قوله (أفي كل يوم ذا الدمستق مقدم قفاه على الإقدام للوجه لائم؟) فمقدم الدمستق في حد ذاته ليس هو المراد تجليته؛ فقد يقدم مهدِّدا، وقد يقدم مفاوضا، وقد يقدم معتذرا، وقد يقدم غير ذلك؛ لذا فإن جملة الحال هي ما عليه المعول في بيان الغرض، وتوجيه الكلام هذه الوجهة التي يريدها المبين، وقد جاءت جملة الحال في كلام أبي الطيب مبينة مراده عن طريق إبراز الهيئة التي عليها مقدم الدمستق؛ فقد قدم حال كون القفا منه يلوم الوجه على القدوم، وكأن القفا لما ناله من الأذي، صب جام لومه على الوجه، وفي صياغة جملة الحال على هذا النحو

كناية[١] عن الذلة والمهانة والصغار الذي يعلو الدمستق، والحقارة التي تجلله، ولا يكون هذا إلا مع الهزائم النكراء، ولا تكون الهزائم النكراء لمثل جيش الدمستق الضخم الذي يملأ الشرق والغرب زحفه، وفي أذن الجوزاء منه زمازم = لا تكون هزيمة مثل هذا الخميس إلا من جيش عرمرم يقوده عنتريس، وهكذا يتدخل الشاعر في هندسة بناء البيان فيجعل جملة الحال ندا – أو تكاد تكون – للجملة الأم التي من أجلها صيغت جملة الحال، وعلى بيانها توفرت.

من المعالم العامة لهذا المقطع أن صاحبه بناه على الجملة الحالية التي تسيدت الموقف في هذا المقطع؛ إذ قد انتدبها أبو الطيب خمس مرات في ستة أبيات هي قوام هذا المقطع المحدود، وقد جاءت الجمل الحالية هنا على النحو الآتي:(قفاه على الإقدام للوجه لائم – وقد عَرفَتْ رِيحَ الليُوث البهائمُ – وقد فَجَعَتهُ بِابنِهِ وابنِ صهرِهِ وبالصِهرِ حَملاتُ الأَميرِ الغَواشمُ – مَضَى يَشكُرُ الأَصحابَ في فَوتِهِ الظُبى – ويفهَمُ صَوتَ المَشرفيَّةِ فيهِمِ). ستة أفعال ماضية أحسبها كافية للدلالة على حرص أبي الطيب في معقده هذا على إبراز الأحداث والأخبار التي أخبر بها عن نتائج المعركة في صورة الثابت الذي لا يختلجه ريب، بل إن أبا الطيب لما جاء بالفعل في صيغة المضارع كان يحكي حالا ماضية؛ مما يمكن القول معه أن أفعال المقطع كلها جاءت ماضية ولو في المعنى من باب التغليب، على أن جملة أفعال المقطع بلغت أحد عشر فعلا: ستة أفعال منها ماضية لفظا ومعنى، وهي (عرفت – فجعته – مضى – شغلتها – أعطاك – نجا)، ومنها ثلاثة أفعال جاءت في صورة المضارع لكنها تحكي عن حال ماضية وهي (مضى يشكر الأصحاب – ويفهم صوت

(١) للكناية وقعها الذي لا يدفع، وسحرها الذي لا يقاوم، وقد ذكرها العلماء، وعدوها من محاسن القول، وفنون البيان. ينظر: كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري ٣٦٨/١ بتحقيق على محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم المكتبة العصرية بيروت لبنان ١٤١٩هـ.

المشرفية – يسر بما أعطاك)، والفعلان الباقيان جاءا في معرض الاستفهام الإنكاري الذي أنكر فيه الشاعر على الدمستق ما كان منه من مجيء متكرر، ووقوف بين يدي سيف الدولة تملؤه الذلة، ويغلفه الهوان.

هنا يقف قلم الشاعر، معلنا نهاية هذا المقطع الدائر حول نتيجة المعركة، ودحر الروم مهزومين، وانقلاب السحر على الساحر، ليضع بعد ذلك آخر بصماته على القصيدة من خلال الوقوف على نهايتها المتوجة بسيرة الممدوح، فقد توفر فيها أبو الطيب على تصوير سيف الدولة في صورة القائد الفذ الذي تتجه صوبه الأنظار، وعليه تنعقد الخناصر، وعلى شجاعته وإقدامه معقد الآمال، وفيه يهنئ الشاعر ممدوحه بالنصر المدوي، والعز التليد، والمجد الراسخ ، والذكر الحسن، ولسان الصدق الذي لا يكاد يزول، وهذا ما تدلف إليه الدراسة عبر أبيات المبحث التالي.

المبحث الثامن

المعنى الفرعي السابع

سيف الدولة معقد الآمال

المعنى الفرعي هنا يسبح في فلك الممدوح سيف الدولة، وقد تسلل الشاعر إلى فكرته هذه عبر أفكاره السابقة فاستوت على سوقها، نتيجةً مقبولةً، ومقايسةً لا ترد، وقد خلص منها إلى كون ممدوحه ذخر الإسلام، ومعقد أنظار الآملين، وهذا هو المعنى الأم لهذا الفقار الذي تقول أبياته:

٣٩ – وَلستَ مَلِيكًا هازِمًا لِنَظِيرِه
ولكِنكَ التَّوحِيدُ لِلشِرْكِ هازِمُ

٤٠ – تشَرَّفُ عَدنانٌ بِهِ لا رَبيعةٌ
وتَفتخِرُ الدُّنيا بِهِ لا العَواصِمُ

٤١ – لَكَ الحَمدُ فى الدُرِّ الَّذي لِيَ لَفظُهُ
فإِنَّكَ مُعطيه وإِنِّيَ ناظِمُ

٤٢ – وإِنِّي لَتَعدو بي عَطاياكَ في الوَغى
فَلا أَنا مَذمُومٌ ولا أَنتَ نادِمُ

٤٣ – على كُلِّ طَيَّارٍ إليها بِرِجلِهِ
إِذا وَقَعَتْ في مِسمَعَيهِ الغَماغِمُ

٤٤ – أَلا أَيُّها السَّيفُ الَّذي لَيسَ مُغمَداً
وَلا فيهِ مُرتابٌ ولا مِنهُ عاصِمُ

٤٥ – هَنِيئا لِضَربِ الهامِ والمَجدِ والعُلَى
وَراجِيكَ والإِسلامِ أَنكَ سالِمُ

٤٦ - ولِـــم لا يَقِـــي الرَّحـــمنُ حَـــدّيكِ ما وَقَى
وتَفلِيقُـــــهُ هـــــامَ العِـــــدَى بِـــكَ دائِـــمُ

لا تنكر الصلة بين هذا المعنى الفرعي والمعنى الأم للقصيدة، وقد سبق بيان أن المعنى الأم لقصيدة أبي الطيب متجه صوب عزيمة سيف الدولة، تلك العزيمة الحية القوية المتجددة التي لا تخور، ولا يعتريها فتور، وأنها تقوم مقام النصر، خاصة وأنها تناصرها شجاعة فائقة لا تغلب من قلب ثابت لبطل مغوار لا يرد بأسه عن القوم المعتدين، وهذا المعنى الفرعي عميق الصلة، مسيس الرحم بهذا المعنى الأم للقصيدة، فهو كالنتيجة له؛ فمن كانت هذه شياته فهو لا جرم معقد النظر، ومتعلق الأمال، وهو عين ما ضمنه أبو الطيب لهذا المقطع الأخير من هذه القصيدة الرائعة.

بهذه الدفقة الشعورية القوية من هذا الشاعر البارع ذي الطبع الحي بدأ هذا المقطع الأخير من مقاطع القصيدة، ولذا فقد أحسن أبو الطيب عندما استهل هذا المعقد الأخير من معاقده بهذا الجملة: (ولست مليكا هازما لجنوده، ولكنك التوحيد للشرك هازم)؛ فقد تلطف الشاعر حتى نفذ إلى ما به تكون الملائمة، وبالرجوع إليه تكون المواءمة، ولذا فإن هذه الجملة إنما هي الجملة الأم لهذه الفكرة الجزئية من أفكار القصيدة، وهي الصورة اللفظية للمعنى الأم، وقد بناها الشاعر على هذا الأسلوب الذي صدره بالنفي، وشفع هذا النفي بواو العطف التي استدرك بعدها؛ فجاء بما يريد إثباته في صورة المدح الذي يشبه الذم، فأبو الطيب لا يرضى للممدوح مجرد كونه مليكا هزم نظيرا له، ولذا فقد نفى ذلك عنه: (ولست مليكا هازما لجنوده) وأتبع ذلك النفي بالعطف والاستدراك؛ فألبس ممدوحه ثوب التوحيد، وأخرجه في صورة القوي الغالب المتحدر كالإعصار الهائج الذي راح يحصد في طريقه مخلفات الوثنية الحمقاء، وعقابيل الباطل المشرئبة.

عشرة ضمائر خطاب أظنها كافية لتكون ضمن معالم هذا المقطع السابح في فلك سيف الدولة، ومن ذلك يقف المتلقي على قرب المسافة بين الشاعر ومليكه الممدوح، ويدلنا كذلك على مكانة أبي الطيب عند سيف الدولة، ويشهد لهذا الاستنتاج ما نقل من أن وحده أبا الطيب من كان ينشد الشعر بين يدي سيف الدولة جالسا.

من ملامح هذا المقطع تلك المقابلات الماتعة التي كأنها راقت أبا الطيب؛ فأطال استصحابها على امتداد القصيدة كلها، فما من مقطع من مقاطعها إلا وقد حرص الشاعر على إشاعة جو من المقابلات الحية التي يثرى بها المعنى، ويتزين بها المقام، وقد بدأ في هذا المقطع فقابل بين سيف الدولة ونظرائه – إن صح عنده أن له نظراء – وشفع ذلك بالمقابلة بين التوحيد والشرك، وذلك حيث يقول (ولست مليكا هازما لنظيره، ولكنك التوحيد للشرك هازم)، ولم يكتف بهذا، بل راح يقابل بين (عدنان) و(ربيعة) وبين (الدنيا) و(العواصم)، وذلك حيث يقول:(تشرف عدنان به لا ربيعة، وتفتخر الدنيا به لا العواصم)، وعقد بعد ذلك مقابلة قوية بينه وبين الممدوح وبين عطاء كل منهما، فالممدوح يعطيه درا، وأما هو فينظم هذا الدر ويصوغه قلائد وأكاليل يتوج بها ممدوحه، ويجلي ذلك قوله:(لك الحمد في الدر الذي لي لفظه، فإنك معطيه وإني ناظم)، وراح يكرر المقابلة بينه وبين ممدوحه في البيت التالي فقال:(فلا أنا مذموم ولا أنت نادم)، وختم جو المقابلات بما عقده من مقابلة بين الممدوح وبين أعدائه وبين الوقاية والتفليق فقال: (ولم لا يقي الرحمن حديك ما وقي، وتفليقه هام العدى بك دائم؟)، وكل هاتيك المقابلات من شأنها خدمة المعنى؛ وذلك لأنها تبرز الفارق بين الممدوح وبين أعدائه، ومن ثم تجلي عزيمته الماضية، وهممه التي لا منتهى لصغارها، وتوضح أن همته الكبرى أجل من كل ما سواها من همم أهل الدنيا بأجمعها، وهذا – ولا ريب – يخدم المعنى الأم المتمركز حول عزيمة سيف الدولة وشجاعته، وقوة بأسه ورباطة جأشه.

يعدّ التقديم معلما بارزا من معالم هذا الفقار، فقد رصدت الدراسة لأبي الطيب انتخاب التقديم تسع مرات خلال هذا المعقد من القصيدة الذي لم تتجاوز أبياته الثمانية، وقد وقعت العين على التقديم بين معاطف هذا المقطع في التراكيب الآتية (لِلشِـــرْكِ هــازمُ – لَــكَ الحَــمدُ – لِيَ لَفظُهُ – بــي عَطايــاكَ – إليهــا برِجلِــهِ – فـــي مِســمَعَيهِ الغَمــاغِمُ – فيـــهِ مُرتـــابٌ – مِنــهُ عــاصِمُ – بِــكَ دائِــمُ)، والتقديم إنما يكون بقصد الاهتمام والعناية بالمقدم، وهذا متفهم في سياق التعظيم والتفخيم، مع الفخر بنفسه، وهو ما يحرص أبو الطيب على إبرازه في هذا المقطع السابح في فلك الممدوح، المتدثر بذكر محاسنه، المتوشح بحميد مناقبه، وجميل صفاته.

من معالم هذا الفقار رد عجز الكلام على صدره، حيث بدأ المقطع بالحديث عن هزيمة الشرك أمام جيوش الممدوح، وتحت سنابك خيله؛ فقال:

ولست مليكا هازما لعدوه،

ولكنك التوحيد للشرك هازم

ثم رجع فأكد المعنى في آخر المقطع؛ فاستعان بالاستفهام التعجيبي فقال:

ولم لا يقي الرحمن حديك ما وقى

وتفليقه هام العدا بك دائم

وبذلك يربط أول الكلام بآخره، ويعطف على بدئه منتهاه، وذلك – لا شك – يخدم المعنى، ويوافق المقام؛ لأنه يركز النتيجة على آخر ما يقول، ليكون بالذهن أعلق، وفي الذاكرة أبقى، وفي ميزان البيان أقوم قيلا.

النفي الواقع في صحبة المعادل أيضا كان حاضرا في معاطف هذا الفقار من أوله إلى آخره، وكان نفيا بارا بالغرض، صاحب فضل على السياق، فلقد رصدت الدراسة لأبي الطيب خلال هذا الفقار ست مرات يستدعي فيها النفي، وهي علـــى

النحو التالي: (ولَستَ ملِيكًا هازمًا لنَظِيرِه، ولكِنكَ التَّوحِيدُ للشِرْكِ هازمُ – عَدنانٌ لا رَبيعةٌ – الدُّنيا لا العَواصِمُ – لا أَنا مَذمُومٌ – ولا أَنتَ نادِمُ – لَيسَ مُغمَداً – لا فيهِ مُرتابٌ – لا مِنهُ عاصِمُ – لا يَقِي الرَّحمنُ حَدّيكِ ما وَقَى)، وفي هذه التراكيب يتأكد المعنى المراد تأكيده، وذلك عن طريق اثباته مرتين: مرة بإثباته ومرة بنفي معادله أو ضده، وهذا يعكس حرص أبي الطيب على تصوير الممدوح في صورة القائد الأمثل، والفارس المستبسل صاحب العزيمة الحرة والرأي الذي لا يخيب، وهذا متساوق لا جرم مع المعنى الأم لهذا الفقار المنعقد على سيف الدولة، وبيان أنه ذخر الإسلام، ومعقد أنظار الآملين.

وهكذا يصل الشاعر إلى منتهى وسعه، وغاية مُنَّته في مدح سيف الدولة في هذه القصيدة العصماء التي شرق فيها أبو الطيب وغرب، وأعمل كل طاقته، متوفرا على ممدوحه، يزينه بحلل العز، ويتوجه بتيجان الكرامة، وينثر فوق رأسه أكاليل الثناء من حر البيان وبكر القريض، وذلك على امتداد ستة وأربعين بيتا من خالص الشعر العربي وعامره؛ وقد مات أبو الطيب وبقيت روائعه، تخوض إلينا عباب القرون، وتقفز فوق رءوس الحقب، وقد خلع عليها تعاقب الدهور بردين من جلال وبهاء؛ فلله در أبي الطيب شاعر العربية، وصناجة العرب في العصر العباسي!!، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم!.

خاتمة البحث

الحمد لله، والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه، وصفوته من خلقه، وعلى آله وصحبه أجمعين، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين، أما بعد فقد رصد الباحث من مدارسة القصيدة مناط البحث النتائج الآتية:

- حددت الدراسة بعد الوقوف مليا أمام أبيات القصيدة، وتفحص بيان الشاعر وجمله وتراكيبه = حددت المعنى الأم لرائعة أبي الطيب العصماء، وهذا المعنى الأم للقصيدة يتمثل في عزيمة الممدوح النافذة، وهمته الفتية المائزة، وأنها عدة النصر وميزاب الفلاح، وما يستتبع ذلك من شجاعة الممدوح الغالب الذي يصد جيوش الأرض جمعا بهمة تقوم مقام النصر إن فاته النصر.
- حددت الدراسة كذلك الجملة الأم للقصيدة، وهي الصورة اللفظية للمعنى الأم، وهذه الجملة الأم تتمثل في البيت الثالث من القصيدة، وفيها يقول الشاعر:

يكلف سيف الدولة الجيش همه

وقد عجزت عنه الجيوش الخضارم

- وقفت الدراسة على المعاني الفرعية لقصيدة المتنبي، ورصدت أوديتها الثمانية، وتمثلت هذه الأودية في الآتي: العزائم على قدر الرجال، عزيمة لا تعرف الكلال، أحداث المعركة، لا جدوى من عتاد الروم، قوة الممدوح الباهرة، نتيجة المعركة، الممدوح معقد الآمال. كما حددت الدراسة الجملة الأم لكل معنى من هذه المعاني الفرعية.
- سجلت الدراسة وثوق الآصرة بين المعنى الأم للقصيدة وسائر المعاني الفرعية المنبثقة، ورصدت حرص أبي الطيب الحرص كله على صلة الرحم بين أعطاف المعاقد في تضاعيف الفقار.

- ألمعت الدراسة إلى تنامي العلاقات بين المعني الأم والجملة الأم، وبينت أن الجملة الأم إنما هي الصورة اللفظية للمعنى الأم، وأنه ما من معنى من المعاني الفرعية إلا اختار له الشاعر بعناية فائقة جملة أُمّا تتبعها بقية جمل المعقد، وتدفف في ركابها تراكيب السياق.

- سجلت الدراسة في بعض مقاطع القصيدة تقاربا في البناء اللغوي بين الجملة الأم وبقية جمل المقطع؛ حتى لكأنها أفرغت إفراغا واحدا، وكادت تتجاوز مجرد التشابه في هندسة البيان وسبكه إلى التوحد، لولا بقية من فوارق بينها كان قد طلبها المقام(١).

- رصدت الدراسة تشابها في السمت البنائي بين الصورة اللفظية للمعنى الأم للقصيدة والصورة اللفظية لبعض المعاني الفرعية،؛ حيث لوحظ أن الشاعر في هندسة بناء البيان سلك مع الجملة الأم للمعنيين سبيلا واحدا، وراح ينقل الخطو في الجملتين على ذات الطريق، واستصحب الشاعر ثوب الحالية، وإن كان ثمة فارق دقيق بين هندسة البيان في الجملة الأم للقصيدة وبين الجملة الأم لتلك المقاطع المتشابهة مما بينته الدراسة في حينه(٢).

- اعتمد أبو الطيب في تجلية الناتج الدلالي على ثلاثة محاور أساسية هي الأصوات والمفردات(٣) والجمل. واستثمر أبو الطيب هذه المحاور استثمارا بصيرا جعلها غنية حافلة بأصناف التكثيف والتركيز، وأفصح بها عن نبيل الأحوال، ورحيب المعاني، وجليل المقاصد وزكيّها. فأصاب المحز في أوجز عبارة، ووصل إلى لبّ المعنى من أقصر طريق، لأنه يحسن كيف يسدد، ويدرك

---

(١) ينظر على سبيل المثال صـ ٢١ من هذه الدراسة.
(٢) ينظر على سبيل المثال صـ ٦٤، ٦٩ من هذه الدراسة.
(٣) ينظر على سبيل المثال صـ ٢٤ من هذه الدراسة.

متى يشد القوس، ويبري السهام. وما ذاك إلا لسعة الذَّرع، وشدة المُنَّة، ولعمري ما وراء ذلك غير امتشاق اليراع!.

- لم يغفل أبو الطيب الجانب الصوتي[١] والإيقاعي للكلمات على امتداد معاقد القصيدة وطول فقارها؛ فكرر حروفا بعينها على كيفية مخصوصة بكثافة ومفاطنة واقتدار؛ فأحدث نوعا من التناغي الصوتي بين الكلمات، والانسجام الإيقاعي بين الجمل؛ فرقت مقاطع الكلام، ولطفت معاطفه؛ فصار لأصواته وقع رائع أحدث عند سماعها نوعا الطمأنينة والارتياح.
- مما رصدته الدراسة كذلك العناية الفائقة من أبي الطيب بانتقاد المفردات ونخلها، واصطفاء أنسبها بالغرض، وأبرها بالمقام. وترتب على ذلك تناغم بين أصوات الكلم، وأوساط البيان؛ إذ كان أبو الطيب في هذه القصيدة مجموع النفس، مستغرقا في إحكام صنعته، غير متفرق الخواطر، ولا متشتت الأنباض، وقد نجح في توظيف العناصر اللغوية – ومنها المفردات – أيما نجاح، فقد جاءت مفرداته متمكنة، لا قلقة ولا نابية، ومن يتأمل مفردات هذا القصيدة يتحقق من صحة هذا الكلام، ويلحظ قدرة الشاعر على تحقيق التناسق في توزيع المفردات داخل البناء اللغوي لهذه القصيدة العصماء[٢].
- نجح أبو الطيب إلى حد بعيد في توظيف ظاهرة التقابل[٣] بكل أطيافه ومراتبه؛ وأقام أسلوبه على نظام من التآلف الصوتي العجيب الذي خلع على البيان آثاره النفسية؛ فألقى بظلال كثيفة على المعنى في طول القصيدة وعرضها، حتى إنه ليمكن القول بأن أبيات القصيدة لا تخرج بصورة أو بأخرى عن تلك الدائرة البيانية التي بناها أبو الطيب، وأبدعها في هندسة بارعة، ووعي

---

(١) ينظر على سبيل المثال صـ ٢٣، ٢٤ من هذه الدراسة.

(٢) يراجع على سبيل المثال صـ ٤٨ من هذه الدراسة.

(٣) ينظر على سبيل المثال صـ ٢٦، ٣٦، ٣٨، ٥٣، ٥٨، ٧٤ من هذه الدراسة.

عجيب؛ فالأبيات تتصاعد في درج المعني مرقبا بعد مرقب، لتضخيم القوة القيادية لسيف الدولة، والشجاعة المفرطة، تلك الشجاعة المصحوبة بهمة لا تفتر، وعزيمة لا تخور. وقد استرفد أدوات صوره من خزين لغوي وفير يمده بكل ما يقتضيه الغرض، ويرفده بما يستدعيه المقام. وهكذا يستمر التقابل في المعنى بين أعطاف المقاطع من أول القصيدة حتى منتهاها سنة حسنة لأبي الطيب؛ تجلية لوكده، ووصولا إلى مقصوده.

- رصدت الدراسة نجاحا فائقا لأبي الطيب في توظيف الاستعارة(١) الرائعة التي أنتجتها قدرته الفائقة، يدفعها خياله الرحيب المسيطر المقتدر على جمع شوارد الصور، وأوابق الأفكار، وتوظيفها متى شاء، لتكون عونا له تسمح متى شاء وتطوع.
- لحظت الدراسة أيضا حرص أبي الطيب على إحكام الروابط(٢) بين جمل المقطع الواحد على امتداد القصيدة من أولها إلى آخرها؛ فقد استخدم واو العطف حينا، الواو الحالية تارة، والتقابل طورا ثالثا، ومراعات النظير تارة أخرى، إلى غير ذلك من أدوات الربط التي أحسن أبو الطيب توظيفها في سبيل خدمة المعنى الأم، والمعاني الفرعية على امتداد بيانه في القصيدة كلها.
- رصدت الدراسة كذلك إيثار الشاعر أسلوب الإنشاء مفتتحا به غير واحد من معاقد القصيدة(٣)، والإنشاء – لا ريب – فيه إيقاظ للسامع، وتنبيه لحواسه، واستثارة لعقله، وتنشيط لمراكز الوعي، وتحفيز لدوائر فحص البيان.
- قصيدة أبي الطيب تسير في سياق نفسي واحد يسرح في شعب واحد، وصاحب البيان فيها يتفيأ ظلال واد خصيب، تتفتق أكمامه عن صورة مشرقة لسيف

---

(١) ينظر على سبيل المثال صـ ٢٦، ٥١ من هذه الدراسة.
(٢) ينظر على سبيل المثال ص ـ٣٧ من هذه الدراسة.
(٣) يراجع على سبيل المثال صـ ٥٠، ٥٦، ٥٧، ٧١، ٧٦ من هذه الدراسة.

الدولة ذلك القائد العظيم، والشاعر العريب، حتى لكأن أبا الطيب قد فرغ باله إلا من ممدوحه، وفرغ لسانه إلا من ذكره.

- القصيدة – على طولها واتحاد سياقها الجملي – تتقاسمها أودية ثلاثة يدور الشاعر في رحاها؛ ولا تخطئها العين، فلَم يجاوز أبو الطيب هنا أودية الإرادة والتردد والنصر، وهذه الأودية الثلاثة إنما هي المعاقد الكبرى التي تسبح القصيدة في فلكها.

- المعاقد الجُلّى للقصيدة تتفرع عنها أفكار صغرى، وهذه الأفكار الصغرى تشبه أن تكون شُعَبا صغيرة داخل البناء الشعري والسياق النفسي للقصيدة، وحول كل شُعبة منها تدور جملة أبيات تقل أو تكثر، وهذه الجملة من الأبيات تضيء جوانب هذه الشعبة، وترفد فقارها، وقد تتكاثر هاته الفروع الجزئية المنبثقة من هذا المعنى الفرعي، وتشتجر حتى يظن أنها ضمن المعاقد الكبرى للقصيدة، ويوشك أن يكون المعنى الأم لهذا السياق الجزئي نديدا لمعنى القصيدة الأم، ومقصودها الرئيس. ثم تنتظم هذه الأفكار الصغرى في قلادة واحدة تخدم الغرض الأعظم، وتسهر على راحة المقصد المؤم. وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم!.

فهرس المصادر والمراجع

- أسرار البلاغة للجرجاني بتحقيق شاكر. مطبعة المدني بالقاهرة من دون تاريخ.
- أساس البلاغة للزمخشري بتحقيق محمود شاكر مطبعة المدني بالقاهرة ١٩٩١م.
- الأصول في النحو لابن السراج بتحقيق عبد[رب]الحسين الفتلي. طبعة مؤسسة الرسالة بيروت من دون تاريخ.
- الإعجاز البلاغي د/محمد أو موسى. ط/الثانية وهبة بالقاهرة ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
- إعجاز القرآن للباقلاني بتحقيق السيد أحمد صقر. ط/الخامسة. دار المعارف بمصر١٩٩٧م.
- آل حميم الجاثية د/محمد أبو موسى. ط/الأولى وهبة بالقاهرة ١٤٣٢هـ ٢٠١١م.
- آل حميم غافر فصلت د/محمد أبو موسى. ط/١. وهبة القاهرة ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.
- الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني بتحقيق خفاجي. ط/الثالثة. دار الجيل بيروت من دون تاريخ.
- البارع في اللغة لأبي على القالي بتحقيق هشام الطعان. ط/الأولى مكتبة النهضة ببغداد١٩٧٥م.
- البيان والتبيين للجاحظ. طبعة دار ومكتبة الهلال ١٤٢٣ه.

- تحرير التحبير لابن أبي الإصبع. بتحقيق د/حفني محمد شرف. طبعة صادرة عن لجنة إحياء التراث الإسلامي بليبيا من دون تاريخ.
- تهذيب اللغة للأزهري بتحقيق محمد عوض. ط/الأولى. دار إحياء التراث العربي بيروت ٢٠٠١م.
- تاج العروس للزبيدي بتحقيق مجموعة من المحققين. طبعة دار الهداية من دون تاريخ.
- تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري بتحقيق أحمد عبدالغفور. ط/ الرابعة. دار العلم للملايين بيروت ١٤٠٧ه.
- جمهرة اللغة لابن دريد بتحقيق رمزي بعلبكي. ط/الأولى. دار العلم للملايين بيروت ١٩٨٧م.
- جواهر البلاغة للهاشمي بتحقيق د/ يوسف الصميلي. المكتبة العصرية بيروت من دون تاريخ.
- حياة الحيوان الكبرى للدميري. ط/الثانية. دار الكتب العلمية بيروت ١٤٢٤هـ.
- خزانة الأدب لابن حجة الحموي بتحقيق عصام شعيتو. ط/١. دار الهلال بيروت ١٩٨٧م.
- الخصائص لابن جني بتحقيق محمد على النجار طبعة عالم الكتب بيروت من دون تاريخ.
- خصائص التراكيب د/محمد أبو موسى. ط/السادسة مكتبة وهبة بالقاهرة٢٠٠٤م.

- دراسة في البلاغة والشعر د/محمد أبو موسى. ط/١ وهبة بالقاهرة ١٤١١هـ.
- دلالات التراكيب د/محمد أبو موسى. ط/الثانية. وهبة بالقاهرة ١٤٠٨ه.
- ديوان أبي الطيب بشرح العكبري بتحقيق مصطفى السقا وآخريْن ط دار المعرفة بيروت.
- شرح أحاديث من صحيح البخاري د/ محمد أبو موسى ط/الثانية. مكتبة وهبة بالقاهرة ٢٠١٠م.
- شرح أحاديث من صحيح مسلم دراسة في سمت البيان الأول د محمد أبو موسى. ط/ ١ وهبة بالقاهرة ١٤٣٦هـ.
- شروح التلخيص. ط/ الأولى – دار الإرشاد الإسلامي – بيروت.
- عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح لبهاء الدين السبكي بتحقيق د/عبدالمجيد هنداوي. ط/الأولى. المكتبة العصرية بيروت لبنان ١٤٢٣ه.
- العين للخليل بتحقيق د/ مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي طبعة مكتبة الهلال من دون تاريخ.
- غريب الحديث للقاسم بن سلام الهروي بتحقيق محمد عبدالمعين خان. ط/ الأولى ١٣٩٦ هـ دار الكتاب بيروت.
- قراءة في الأدب القديم د/ محمد أبو موسى الطبعة الثانية ١٩٩٨م . مكتبة وهبة بالقاهرة.
- قواعد الشعر لأبي العباس ثعلب بتحقيق رمضان عبدالتواب. ط/ الثانية. الخانجي بالقاهرة ١٩٩٥م.

- الكتاب لسيبويه بتحقيق عبدالسلام هارون. ط/الثالثة. الخانجي القاهرة ١٤٠٨ه.
- كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري بتحقيق على محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم. المكتبة العصرية بيروت لبنان ١٤١٩ه.
- لسان العرب لابن منظور. ط/ الثالثة. دار صادر بيروت ١٤١٤ه.
- المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده بتحقيق عبدالحميد هنداوي. ط/الأولى. دار الكتب العلمية ٢٠٠٠م.
- مجمل اللغة لابن فارس بتحقيق زهير سلطان. ط/الثانية. مؤسسة الرسالة بيروت ١٤٠٦هـ.
- مختار الصحاح للرازي بتحقيق يوسف الشيخ. ط/ الخامسة. المكتبة العصرية بيروت١٩٩٩م.
- المخصص لابن سيدة بتحقيق خليل جفال. ط/الأولى. دار إحياء التراث العرب بيروت ١٩٩٦م.
- المسالك والممالك للاصطخري. طبعة دار صادر بيروت ٢٠٠٤م.
- معجم البلدان لياقوت الحموي. ط/ الثانية. دار صادر بيروت ١٩٩٥م.
- معجم ديوان الأدب للفارابي بتحقيق أحمد مختار عمر مؤسسة دار الشعب بالقاهرة ٢٠٠٣م.
- مفتاح العلوم للسكاكي بتحقيق نعيم زرزور. ط/الثانية. دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٧ه.
- مقاييس اللغة لابن فارس بتحقيق عبدالسلام هاروون طبعة دار الفكر ١٩٧٩م.

- المنصف في السارق والمسروق لابن وكيع بتحقيق عمر خليفة. ط/الأولى. جامعة قات يونس بنغازي ١٩٩٤م.
- نتائج الفكر في النحو للسهيلي. ط/الأولى. دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٢ه.
- النكت في إعجاز القرآن للرماني بتحقيق محمد خلف الله، ود محمد زغلول سلام. ط/الثالثة. دار المعارف بمصر ١٩٧٦م.
- نهر الذهب في تاريخ حلب للغزي. ط/الثانية. دار القلم بحلب ١٤١٩ه.
- نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري. ط/الأولى. دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة ١٤٢٣ه.

فهرس الموضوعات

الموضوع:	الصفحات
المقدمة، وفيها:	(٣٦٩ – ٣٧٤)

وُكد الباحث من وراء بحثه – الرواد غمسوا أقلامهم في أنوار المعرفة – مصيبة الأمة في أصحاب العقول المستركة – الانعتاق من تراث الأجداد أس دراسات بعض الأحفاد – الأسلاف سكبوا على صفحات العلم حبات عيونهم – خوادع الآمال وكواذب العلل معاول تهدم بوارق لغتنا في نفوس الناشئة – الشيخ أبو موسى يتعبد في محراب العلم، ويطارد شوارد الفكر – أنفاس الشيخ عبدالقاهر تسري في كلام الشيخ أبي موسى – الشيخ أبو موسى ينبه على ضرورة تتبع حركات المعاني في أعطاف الكلام – الدكتور محمود مخلوف من أغراني بهذا الموضوع – عمود منهج الشيخ أبي موسى في التحليل – خطة البحث – طريقة السير في الدراسة – منهج الشيخ في التحليل لم يستو على سوقه إلا في مرحلة وسطى من تاريخ مؤلفاته.

الموضوع:	الصفحات
المبحث الأول:	(٣٧٥ – ٣٨٥)

نص القصيدة، المعنى الأم والمعاني الفرعية، وفيه:

نص القصيدة – تحديد المعنى الأم للقصيدة يسهل معه تحديد الجملة الأم – الجملة الأم هي الصورة اللفظية للمعنى الأم – الكلام له أم وأبناء وحفدة كما عند الشيخ – الجملة الأم لرائعة أبي الطيب – منهج الشيخ أبي موسى في تحليل النصوص – السياق الجملي للقصيدة – ألفاظ أبي الطيب تصيب شاكلة المعنى – المقاصد الجُلَّى للقصيدة.

الموضوع:	الصفحات
المبحث الثاني:	(٣٨٦ – ٣٩٢)
المعنى الفرعي الأول: العزائم على قدر الرجال، وفيه:	
الرجال قوالب الأحوال – الرحم بين المعنى الأم للقصيدة والمعنى الأم لهذا المقطع – جملة (على قدر أهل العزم تأتي العزائم) مقدمة منطقية لبيت القصيد – موقعها مما قبلها – حرف العطف يجعل المتعاطفين كالشيء الواحد – واو العطف وسبب استدعائها بين جمل المقطع – التقارب في البناء اللغوي يجعل جمل الفقار كالجملة الواحدة – من معالم هندسة البناء البياني لهذا المعنى الفرعي – نسق الأفعال في المقطع – الجانب الصوتي والإيقاعي للكلمات – ظاهرة التقابل.	

الموضوع:	الصفحات
المبحث الثالث:	(٣٩٣ – ٤٠٢)
المعنى الفرعي الثاني: عزيمة الممدوح لا تعرف الكلال، وفيه:	
من دقيق الصنعة أن يجعل الشاعر غرضه في صدر كلامه – المعنى الأم لهذا الفقار وصورته اللفظية – ما زال المضارع سيد الموقف – الجملة الحالية مسكن الغرض وبيت القصيد – من مظاهر تقارب البناء في هذا الفقار – كلام عجيب عن النسر يقوله الدميري –	
مراعاة النظير وحرص أبي الطيب على ذيوعه – الطباق في هذا المقطع – الاستعارة وسيلة أبي الطيب لتأدية المعنى – وجه آخر لجملة: (وما ضرها خلق بغير مخالب – واو العطف وأهميتها في الربط بين جمل المقطع – من ملامح هندسة البيان هنا التدرج والتقابل.	

الموضوع:	الصفحات
المبحث الرابع:	(٤٠٣ – ٤١٣)
المعنى الفرعي الثالث: أحداث المعركة، وفيه:	
المعنى الأم للمقطع – الجملة الأم له – السر في قطع جملة:(سقتها الغمام الغر) عما قبلها – فائدة العطف بين قوله :(والقنا يقرع القنا) وقوله:(وموج المنايا حولها متلاطم) – من أدوات الربط المستخدمة في الفقار – السياق يأخذ بحجز الشاعر نحو البناء البياني – ضرب من التخييل نص عليه الإمام عبدالقاهر – مما رصدته الدراسة على هذا المقطع.	
الموضوع:	الصفحات
المبحث الخامس:	(٤١٤ – ٤١٩)
المعنى الفرعي الرابع: لا جدوى من عتاد الروم، وفيه:	
المعنى الأم للمقطع – الجملة الأم لهذا المعنى – الصلة بين المعنى الأم للقصيدة والمعنى الأم للمقطع – من معالم هذا المقطع تسيد الفعل الماضي – المقابلات – جملة الحال – التشاكل اللفظي – جملة القصر لم تغب عن المقطع.	
الموضوع:	الصفحات
المبحث السادس:	(٤٢٠ – ٤٢٤)
المعنى الفرعي الخامس: قوة الممدوح الباهرة، وفيه:	
المعنى الأم للمقطع – الجملة الأم لهذا المعنى – الصلة بين المعنى الأم للقصيدة والمعنى الأم للمقطع – التشابه في السمت البنائي بين الصورة اللفظية لمعنى القصيدة الأم والصورة اللفظية لهذا المعنى الفرعي – كلمة السر في المقطع جملة الحال – من معالم المقطع: الفعل الماضي – ضمير الخطاب .	

الموضوع:	الصفحات
المبحث السابع:	(٤٢٥ – ٤٢٨)

المعنى الفرعي السادس: نتيجة المعركة، وفيه:

المعنى الأم للمقطع – الجملة الأم لهذا المعنى – الصلة بين المعنى الأم للقصيدة والمعنى الأم للمقطع – التشابه في السمت البنائي بين الصورة اللفظية لمعنى القصيدة الأم والصورة اللفظية لهذا المعنى الفرعي – كلمة السر في المقطع جملة الحال – من معالم المقطع: الفعل الماضي.

الموضوع:	الصفحات
المبحث الثامن:	(٤٢٩ – ٤٣٣)

المعنى الفرعي السابع: سيف الدولة معقد الآمال، وفيه:

المعنى الأم للمقطع – الجملة الأم لهذا المعنى – الصلة بين المعنى الأم للقصيدة والمعنى الأم للمقطع – التشابه في السمت البنائي بين الصورة اللفظية لمعنى القصيدة الأم والصورة اللفظية لهذا المعنى الفرعي – أحسن الشاعر عندما اختار جملة: (ولست مليكا هازما لعدوه) لتكون مفتتحا لآخر مقاطع القصيدة – من معالم هذا الفقار: ضمير الخطاب – القابلات – التقديم – النفي في صحبة المعادل – الشاعر يصل لمنتهى وسعه وغاية مُنَّتِه.

الموضوع:	الصفحات
خاتمة البحث.	(٤٣٤ – ٤٣٨)
المصادر المراجع.	(٤٣٩ – ٤٤٣)
الموضوعات.	(٤٤٤ – ٤٤٧)